تفسير سورة يوسف

عليه السلام

السيد الإمام محمد رشيد رضا
صاحب المنار
(١٨٦٥-١٩٣٥)

دار المنار

مكتبة الوفاء

تفسير

سورة يوسف

عليه السلام

السيد الإمام محمد رشيد رضا

صاحب المنار

(١٨٦٥ — ١٩٣٥)

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

رضا، محمد رشيد ، ١٨٦٥-١٩٣٥
تفسير سورة يوسف عليه السلام/ محمد رشيد رضا - ط١ - القاهرة
دار النشر للجامعات، ٢٠٠٧.
١٨٤ص، ٢٤سم.
تدمك ٧ ٢١٢ ٣١٦ ٩٧٧
١ - القرآن – تفسير
٢- قصص القرآن
أ- العنوان
٢٢٧

* تاريخ الإصدار: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
* الناشر: دار النشر للجامعات - مصر
دار المنار - أمريكا
* رقم الإيداع: ٢٥٩٨٧/ ٢٠٠٧
* الترقيم الدولي: ISBN: 977 - 316 - 212 - 7
* الكود: ٣٢٥/ ٣

Dar Almanar
6012 Beard Ave N, Minneapolis, MN 55429
612-730-7217 daralmanar@hotmail.com



دار النشر للجامعات
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ - ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤
E-mail: darannshr@link.net

تفسير سورة يوسف عليه السلام

بقلم

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

رضي الله عنه

الطبعة الأولى فى صفر سنة ١٣٥٥ — مايو سنة ١٩٣٦

مطبعة المنار بمصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد . .

هذا الكتاب هو آخر ما كتب جَدي السيد الإمام محمد رشيد رضا الحسيني الحسني في «تفسير القرآن الحكيم» الشهير بـ «تفسير المنار»، وقد أتم تفسير سورة يوسف وكتب تصديراً لها فضيلة الشيخ محمد بهجت البيطار الدمشقي رحمه الله.

وبتعريف سريع عن جَدي أقول:

ولد محمد رشيد رضا عام ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م، في بلدة القلمون، طرابلس، منتمياً إلى أسرة كريمة النسب من العترة النبوية الشريفة. وبيت آل رضا، بيت المشايخ، هو بيت علم ودِين وقيادة وريادة، فلقب (شيخ) في لبنان لا يعني فقط العلم والدِين ولكنه يطلق أيضاً على من بايعهم الناس على الرياسة والزعامة، فلا فرق بين مسلم ومسيحي في هذا اللقب. غير أن بيت آل رضا تميز بأنه من البيوتات القليلة التي تحمل معنيا اللقب.

نَشَّأَهُ والده على العلم، ثم التحق بالمدارس الدِينية في طرابلس، مدِينة العلم والعلماء، حيث تتلمذ على يد مشايخه: حسين الجسر، ومحمود نشّابة، وعبد الغني الرافعي. وتأثر من عمه بكتاب إحياء علوم الدِين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

وعندما صار عمره ثلاثة وثلاثون عاماً «ضاقت عليَّ المملكة العثمانية بما رحبت، وعزمتُ على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل، واللسان والقلم، ومن مناهل العلم العذبة الموارد، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة، وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأن أعمل معه وبإرشاده في هذا الجو الحر» كما قال في كتابه «المنار والأزهر». سافرعام

١٣١٥هـ الموافق ١٨٩٨م إلى الأسكندرية، ثم إلى القاهرة حيث «اتصلت بالأستاذ الإمام من أول يوم طلعت عليَّ فيه شمس القاهرة»، وصارحه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميداناً لعمله الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول الصحافة وأثرها في المجتمع، وأقنع التلميذ شيخه بأن الهدف من إنشائه مجلة المنار هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والشبهات والخرافات والبدع، فكان لمنار رشيد رضا الأثر الكبير في نهضة الأمة الإسلامية.

توفي محمد رشيد رضا يوم الخميس ٢٣ من جمادى الأولى ١٣٥٤هـ الموافق ٢٢ من أغسطس - آب ١٩٣٥م، وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره «فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام»، وذلك عقب تفسيره دعاء سيدنا يوسف عليه السلام ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ونحن إذ نعيد نشر تراث السيد الإمام محمد رشيد رضا، نحرص على الإلتزام بأمانة النص، وحق المؤلف الشرعي في نشر كلامه كاملاً كما كتب وبدون تحريف، بما له وما عليه، أو كما قال الإمام مالك بن أنس «كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» ويشير إلى قبر النبي ﷺ، خاصةً أن رشيد رضا هو صاحب قاعدة المنار الذهبية «نتعاون على ما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه».

والله نسأل أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه تعالى إنه هو السميع المجيب.

فؤاد سعيد بن محمد شفيع بن محمد رشيد رضا

ذو الحجة ١٤٢٨هـ

ديسمبر - كانون الأول ٢٠٠٧م

تصدير تفسير السيد الإمام لسورة يوسف عليه السلام بقلم فضيلة الشيخ محمد بهجت البيطار الدمشقي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم لك الحمد حمداً كثيراً لا منتهى له دون علمك، ولا أجر له إلا رضاك، اللهم صل على نبي الرحمة، وسيد الأمة، سيدنا محمد النبي العربي العالمي، وابعثه مقاماً محموداً تزلف به قربه، وتقر به عينه، ويغبطه به الأولون والآخرون، وصل اللهم على إخوانه الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بهديهم إلى يوم لقياك. إليك أيها القارىء العزيز تفسيراً لهذه السورة الكريمة (سورة يوسف عليه السلام) يكشف لك ما انطوت عليه هذه القصة من المعاني القدسية، والتعاليم السماوية، ويريك آيات العناية الإلهية مطيفة بيوسف عليه السلام، حافظة له منذ وعى على نفسه، وبلغ السعي مع أبيه وإخوته، وأنوار العصمة الربانية مشرقة في تلك النفس الزكية، ولقد طهرت سيرته، وعفت سريرته، وصفت روحه حتى صارت مرآة لذلك العالم العلوي الذي علق به قلبه، وشغفه حبه، فرأى الكواكب والشمس والقمر له سجداً، وكأنه وهو بشر قد صار روحاً مجرداً، أو ملكاً كريماً، فأنى لامرأة العزيز ونسوة المدينة أن يوقعنه في شباكهن، أو يصدن قلبه الشريف بحبائلهن وشراكهن، فهو روح علوي، وفتى سماوي، قد نشأ على عبادة ربه، وأترعت جوانب قلبه بحبه، ونطقت جوارحه ولهج لسانه بذكره وشكره، عشقت نفسه الزكية العلوية صفات الكمال، ودلت ملامحه وأخلاقه وأقواله وأعماله على أنه سيكون له شأن عظيم، فحبب إليه الصبر والحلم، والعفة والأمانة، والعلم والحكم، والعدل والعفو والإحسان، حسده إخوته فألقوه في غيابة الجبّ، وأخرجته السيارة فباعوه بيع العبيد، وكادت له امرأة العزيز فزج في ضيق السجن، فصبر على أذى الأخوة، وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة، علم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى، واختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب

الحرام، أفإذا كان؟ كانت العاقبة أن نجاة الله تعالى منهم، ورفعه فوق إخوته، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، ومكن له تعالى في الأرض، وجعل له العاقبة والنصر، والملك والحكم، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص] ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف]

ما في القصة من العظات والعبر لكبراء هذا العصر

وبعد فإن في هذه القصة لأعظم عبرة لأمراء هذا العصر ووزرائه، وسادته وكبرائه، ومجانه وأعفائه من رجاله ونسائه، فإن امرأة العزيز التي كانت تراود فتاها عن نفسه لم تكن من قبل غوية ولا كانت امرأة عادية، ولكنها ابتليت بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه عزيز مصر في قصره، وخلى بينه وبين أهله، فأذلت نفسها له بمراودته عن نفسه، فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه، فشاع في مصر دورها وقصورها ذلها له وإباؤه عليها ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ فذكرهن لها بالوصف ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ دون الاسم صريح في استعظامهن هذا الأمر منها، وأنه أقبح ممن لا زوج لها، لا سيما وزوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها في حين أن من تراوده هو مملوكها وفتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها. وقد تضمن وصف النسوة لها هذا الوصف أنها لم تقتصد في حبها ولا في طلبها، أما الحب فقولهن﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي وصل حبه إلى شغاف قلبها -وهو الغشاء المحيط به- وغاص في سويدائه. قال الشاعر:

يعلـــــم الله أن حبـــــك منــــــي في ســـواد الفـؤاد وســـط الـشغاف

وأما الطلب المفرط فقولهن ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ والمراودة الطلب مرة بعد مرة كما تقتضيه صيغة المضارع، فنسبنها إلى الإسراف في الأمرين جميعاً، فلما سمعت بهذا المكر القولى قابلتهن عليه بمكر فعلي فقد جمعتهن وأخرجته عليهن، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك الحسن الفتان، وفي أيديهن مدى يقطعن بها بما يأكلنه فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما يفعلن مأخوذات بذلك الحسن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فلما هددته بالسجن والإذلال من بعد أن هتك سترها وكاشفت النسوة في أمرها، فتواطأن معها على كيدها، آثر عليه السلام الإعتقال في السجن على ما يدعونه إليه من الخنا والفحش ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

يوسف عليه السلام هو المثل الإنساني الكامل في العفة والصيانة

علمنا من هذه القصة أن يوسف عليه السلام كان المثل الإنساني الكامل في العفة والأمانة، وأن امرأة العزيز -كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير تقوده ... كيف شاء هواها، وأنه كان فاقداً للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا، صغار الأنفس، عبيد الشهوات-[1] وقال الكشاف في تفسير ما رأوا من الآيات - وهي الشواهد على براءته: وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب[2]، وكان مطواعة لها، وجملاً ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما

(١) تفسير المنار.

(٢) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده.

عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعدته، وذلك لما آيست من طاعته، وطمعت في أن يذلـله السجن ويسخره لها.

لا أريد أن أطيل النفس في كلمة التصدير، ولا أن أزيد القراء علماً بقيمة هذا التفسير، فالمنار وتفسيره للقرآن الحكيم غنيان بشهرتها عن التعريف، ومنشئهما مصلح العصر السيد الإمام محمد رشيد رضا (رحمه الله ورضي عنه) أشهر وأكبر من أن يقدمه مثل هذا الضعيف، ولكنني أوجه أنظار القراء الكرام إلى أمور مهمة:

(١) أنه تعالى ذكر هذه القصة لما فيها من العبرة، والدلالة على الحكمة والمقدرة، وقصص الرسل مع أقوامهم كلها عظات وعبر، وكلها غيب لم يسبق للنبي ﷺ علم بها ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ وقد قال تعالى في ختام هذه السورة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والمراد من ﴿قَصَصِهِمْ﴾ قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته، ومنهم من قال قصص الرسل، وأيده بقراءة (قِصَصِهِمْ) بكسر القاف وكلا الوجهين صحيح. فمن أدب التالي لهذه السورة مع ربه أن يستشعر خوفه تعالى في نفسه، ذاكراً ما أنزلت السورة لأجله، وغايته هدايته تعالى لخلقه، فهذه السورة كسائر سور القرآن الذي وصفه منزله بقوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق] فمن حق الله تعالى على التالي أو السامع لقصص يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز أن يعلم أنه كله حق، وكله جد، ليس فيه عبث ولا لهو، وأن يترفع به عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، حتى إنه إن لم يستفزه الخوف أو يغمره الحياء، فأدنى أمره أن يكون جاداً غير هازل ولا ماجن.

(٢) قال السيد الإمام[1] في بيان أن كل ما في القرآن هداية صالحة لكل زمان ومكان، ومنه سورة يوسف عليه السلام «أما سورة يوسف عليه السلام فهي منقبة عظيمة له، وآيات بينة في إثبات عصمته، وأفضل مثل عملي يقتدى به في العفة

(١) المنارج ١ م ٣٤.

والصيانة، يجب أن يهذب به النساء والرجال، فكل منهما يعلم بشعوره الطبيعي قوة سلطان الشهوة الخسيسة على نفسه، ويسمع ويقرأ من أخبار الناس -ولا سيما أهل هذا العصر- ما في طغيانها على غيره من الفضائح والخيانات والجنايات، وتخريب للبيوت، وإضاعة للمال والعيال والدماء والشرف، أفلا يكون أفضل مثل للعفة والصيانة، وأحسن أسوة في الإيمان والأمانة أن يتلى على النساء المؤمنات والرجال المؤمنين، وعلى غيرهم من الملحدين قصة شاب كان من أجمل الشبان صورة، وأكملهم بنية، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان، هي سيدة له، وهو عبد لها، فيحملها الافتتان بجماله وكماله على أن تذل نفسها له، وتخون بعلها، وتدوس شرفها، وتراوده عن نفسه، والمعهود في أدنى النساء وأسفلهن تربية ومنزلة أن يكن مطلوبات لا طالبات، فيسمعها من حكمته، ويريها من كماله وعصمته، ما هو أفضل قدوة في الإيمان بالله، والاعتصام به، وفي حفظ أمانة السيد الذي أحسن مثواه، وأئتمنه على عرضه، وشرفه فيقول لها ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فتشعر بالذل والمهانة، والتفريط بالشرف والصيانة، وتحقير مقام السيادة والكرامة» اهـ.

(٣) بهذا الروح العلوي، وعلى أساس الهداية الكاملة، قد كتب هذا التفسير لسورة يوسف عليه السلام، وفيه ثورة الفضيلة على الرذيلة، والحق على باطل الخرافات الإسرائيلية ومهازلها، وإنك لتجد في تفسير الهم، والبرهان، والأبواب المتفرقة، وحاجة يعقوب وغيرها، من حقائق العلم والعرفان ما لا تجده في تفسير آخر، ومنه ما بين بطلانه رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدباً.

(٤) يوسف الصديق هو آية خالدة على وجه الدهر، بطيب نجاره، وطهارة إزاره، وعفته في شبابه، وشرفه في نفسه، وقوته في دينه، وإيثاره لآخرته، وأفضل هداية ربانية تمثل للنساء والرجال المثل العليا في العفة والصيانة، التي لا تتم لبشر إلا بصدق الإيمان بالله تعالى، ومراقبته في الخلوات والجلوات، ومن هذه القصة

يعلم أن خلوة الرجل بالمرأة مهما تكن صفتهما من أقوى ذرائع الفتنة، وقد حذر النبي ﷺ منها في عدة وصايا حتى في أقارب الزوجين فقد قال ﷺ «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أرأيت الحمو؟ قال«الحمو الموت» رواه الشيخان في الصحيحين وفيهما أيضا «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ولا يدخل عليها الرجل إلا ومعها محرم».

(٥) إن خلوة الرجل بالمرأة، وسفرها في بلاد الشرق والغرب بغير محرم، هو الذي أخرجها عن طور أنوثتها ووظيفتها، وأثارها على طبيعتها وشريعتها، وهو الذي أفضى إلى اختلاط النساء بالرجال في المراقص والملاهي، والاشتراك معهم في المفاسد والمعاصي كمعاقرة الخمر ولعب القمار، في نوادي الخزي والعار، والتجرد والسباحة في الحمامات المشتركة. فيا ذوي المحارم ألا تتقون الله في نسائكم؟ ألا تغارون على أعراضكم؟ لقد أخذت المرأة الحديثة تعقد المؤتمرات في غير وطنها، وتطلب حقوقها من غير دينها وأمتها؟ وهي تدري أو لا تدري أن لها في الإسلام من الحقوق ما لم تعطه امرأة قديمة ولا حديثة، في شريعة من الشرائع الدينية أو المدنية، فهي تطالب بحقوق لم تسلبها، وتشكو أمة لم تظلمها، وشريعة لا تزال تعيش في ظلالها، وتستنير بنورها، أما لهذا الليل من آخر؟ أما لهذه الفوضى العامة من علاج ولا تدبير؟ أين أساة الجراح، وأطباء القلوب والأرواح؟

(٦) سأل بعض الفضلاء: لم لم يعرف يوسف إخوته بنفسه من أول مرة ليبشروا أباهم به؟ والجواب ما أجاب به الإمام ابن القيم في الإغاثة الكبرى قال رحمه الله: لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحل ذلك المحل، وهذه عادة الله سبحانه في الغايات العظيمة الحميدة، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسباباً من المحن والبلايا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول

الله ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه، وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها. كما قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة] وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبب ما مثله سبب. وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة كما أن الغايات المكروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره، والنار وحفها بالشهوات.

هذا وقد بلغ السيد الإمام في تفسيره قوله تعالى ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ودعا ربه أن يجعل له خير حظ منه بالموت على الإسلام، وقد استجاب الله دعاءه، وتوفاه -في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤- وهو يتلو كتابه، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

مات السيد الإمام فانطفأ ذلك النور الوهاج الذي امتد شعاعه إلى أقاصي المعمور أربعين عاماً، وخفت ذلك الصوت الداوي الذي ملأ مسامع الكون هدياً وإرشاداً، وسكن ذلك القلب الكبير الذي أُشرب حب الإصلاح من أول العهد بالحياة.

فلـــئن بكينـــاه لحـــق لنـــا ولـــئن تركنـــا، ذاك للـــصبر
فلمثلـــه جـــرت العيـــون دمـــا ولمثلـــه جمـــدت ولم تجـــر

نعم مات ولكنه إن شاء الله حي بآثاره. حي بتفسيره ومناره. حي بآله ومحبيه ومريديه الذين يهتدون بهديه، ويسيرون على خطته المثلى في الاستمرار على إصدار

تفسيره ومناره، والله هو الموفق والمعين.

وقد فسرت الآيات العشر الأخيرة من سورة يوسف عليه السلام بما هو جهد المقل، ويراها القارىء في صفحة ١٣١[1] إلى آخر الكتاب. ونسأله تعالى أن يلهمنا الصواب، ويؤتينا الحكمة وفصل الخطاب. ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ * ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

محمد بهجت البيطار

الدمشقي

(١) صفحة ١٤٧ من هذا الإصدار. (فؤاد)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين، الذي أنزل عليه ﴿الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وبعد

فهذا تفسير سورة يوسف آخر ما دبجه يراع العلامة الأوحد، فقيد الإسلام السيد الإمام الشيخ محمد رشيد رضا، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، وإنها لتحفة غنية عن التعريف، اشتدت الحاجة إليها، وكثر التساؤل عنها، نزفها إلى العالم الإسلامي كأثر جليل لصاحب المنار، راجين لها ما تستحقه من الرواج والانتشار.

إدارة المنار

(١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م)

تفسير السيد الإمام محمد رشيد رضا
لسورة يوسف عليه السلام

هي مكية وآياتها مائة وإحدى عشر آية فقط، وما قيل من أن الثلاث الأولى منها مدنيات فلا تصح روايته ولا يظهر له وجه وهو يخل بنظم الكلام، وقد راجعت الإتقان فإذا هو ينقله ويقول: وهو واه جداً فلا يلتفت إليه، ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المصري ويزاد عليه الآية السابعة.

والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام والاستدلال في كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالاً على رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ بآيتين متشابهتين، ففي آخر قصة نوح من الأولى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود:٤٩] وفي آخر الثانية ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)﴾

[يوسف] وإشارة التأنيث في الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة وقيل للسورة، وإشارة التذكير في الثانية لقوله تعالى في أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[يوسف:٣] والفرق بين قصتها وقصص الرسل في التي قبلها وفي سورة الأعراف وغيرها أن تلك قصص للرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم لإنذار مشركي مكة ومتبعيهم من العرب، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز التي تقدم بيانها في مباحث (الوحي المحمدي) ثم في بحث التحدي بعشر سور مثله مفتريات. وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه، وكان مملوكاً ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسن الإدارة والتنظيم، وكان خير قدوه للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة كما نجمله في أولها ونفصله إن شاء الله في خاتمتها. وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا وبالحكيم هنالك، وهما في أعلى ذروة من البيان، وأقصى مدى من الحكمة والإحكام، اختير في كل من السورتين ما يناسبها، فسورة يونس موضوعها أصل الدين وهو توحيد الإلوهية والربوبية وإثبات الوحي والرسالة بإعجاز القرآن والبعث والجزاء وهي من الحكمة. وهذه موضوعها قصة نبي كريم تقلب في أطوار كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها، فالبيان بها أخص.

١ - ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه في حقيته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا، وقال مجاهد: بين الله حلاله وحرامه، وقال الزجاج: مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام. تقول العرب أبان الشيء فعلا لازماً بمعنى ظهر واتضح. وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله من غيره مما شأنه أن يشتبه به، ويجوز الجمع بينهما هنا كما قلنا آنفا.

٢ - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي يبين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والأدب والسياسة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معانيه أيها العرب، وما ترشد إليه من مطالب الروح ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الوجدان والحس، وإصلاح الاجتماع العام، المراد بها صلاح الحال، وسعادة المآل،

والقران اسم جنس يطلق على بعضه كالسورة الواحدة وقيل إنه المراد هنا، وعلى جملته كلها.

٣ - ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ أيها الرسول المصطفى ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ أي نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بياناً وأسلوباً وإحاطة، أو أحسن ما يقص ويتحدث عنه موضوعاً وفائدة، ويجوز الجمع بين المعنيين، فالقصص مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها، لأنه من قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً، كأنه قال نقصه عن إقتصاص وإحاطة، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول فيكون القصص بمعنى المقصوص من الأخبار والأحاديث ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي بإيحائنا إليك هذه السورة من القرآن، إذ هو الغاية العليا في حسن فصاحته وبلاغته وتأثيره وحسن موضوعه، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أي وان الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه من قصتك أنت انك كنت من قبل إيحائنا إياه اليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم، وبيان ما كانوا عليه من دين وتشريع كيعقوب وأولاده في بداوتهم، ولا ما كانت الأمم فيه من ترف وحضارة كالمصريين الذين وقع يوسف بينهم، وحدث لهم ما حدث في بعض بيوتاتهم العليا ثم في بيت الملك وإدارة نظام الدولة.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾﴾

هذه الآيات الثلاث في بيان ما وقع بين يوسف في طفولته، وأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فاستدل أبوه برؤياه، على أن سيكون له

شأن عند الله وعند الناس، فتعلق به أمله، وشغف به قلبه، فكان مبدأ لكل ما حدث له من الوقائع المحرقة، ومن العاقبة المشرقة، فهذه الرؤيا لا يظهر تأويلها إلا في آخر هذه الرواية، وأصحاب القصص المنتحلة في عصرنا يحتذون أسلوب قصة يوسف في سورته هذه بوضع خبر مشكل خفي يشغل فكر القارىء في أولها، ويظل ينتظر وقوع ما يحل إشكاله، ويفسر مآله، فلا يصيبه إلا في آخر القصة، وقد قال النبي ﷺ «ان الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» رواه أحمد والبخاري وغيرهما، وفي رواية «الكريم بن الكريم»... الخ.

٤ - ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ هذا شروع في بيان أحسن القصص فهو بدل منه يشتمل عليه. والأكثرون يعدونه بدء كلام جديد يقدرون له متعلقاً: اذكر أيها الرسول إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت الخ والتاء هنا بدل من ياء المتكلم وهو مسموع من العرب في نداء الأب والأم والفصيح كسرها وسمع فتحها وضمها أيضاً ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في المنام بدليل ما يأتي بعد، ثم بين الصفة التي رأى عليها هذه الجماعة السماوية بقوله ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ والسجود التطامن والانحناء الذي سببه الإنقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم وأصله قولهم: سجد البعير - إذا خفض رأسه لراكبه عند ركوبه، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما، واستعمل في القرآن بمعنى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله تعالى وتسخيره وهذا سجود طبيعي غير إرادي، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية من الساجد للتقرب إلى من يعتقد أن له عليه سلطاناً ذاتياً غيبياً فوق سلطان الأسباب المعهودة، وكان الأصل في التعبير عن سجود هذه الكواكب التي ليس لها إرادة أن يقول رأيت كذا وكذا ساجدة لي، ولكنه أراد أن يخبر والده أنه رآها ساجدة سجوداً كأنه عن إرادة واختيار كسجود العقلاء المكلفين فأعاد فعل رأيت وجعل مفعوله ضمير العقلاء وجمع صفة هذا السجود جمع المذكر السالم، فعلم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا يمكن أن تعد من أضغاث الأحلام، التي تثيرها في

النوم الخواطر والأفكار، ولا سيما خواطر غلام صغير كيوسف يخاف أبوه أن يأكله الذئب، وفي سفر التكوين أنه كان قد بلغ السادسة عشرة وهو بعيد.

٥ - ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ يا بني تصغير لكلمة ابن في نداء العطف والتحبب، وقص الرؤيا على فلان كقص القصة معناه أخبره بها على وجه الدقة والإحاطة كما تقدم آنفاً، وقد يفهم منه المعبر البصير المعنى المناسب للرائي القاص أو المعنى الذي تؤول إليه في المستقبل إذا كانت رؤيا حق كما يقع للأنبياء عليهم السلام قبل وحي التكليم ومقدماته، وقد فهم هذا يعقوب واعتقد أن يوسف سيكون نبياً عظيماً ذا ظهور وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته، وخاف أن يسمع إخوته ما سمعه ويفهموا ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه فنهاه أن يقص رؤيا عليهم وعلله بقوله ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي إن تقصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للإيقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية، كما يفعل الأعداء في المكايد الحربية، يقال كاده إذا وجه إليه الكيد مباشرة، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا، أو لمنفعته ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لإبقاء أخيه عنده ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ وسيأتي بيان هذه المقابلة. ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة بينها لا تفوته فرصة لها فيضيعها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عندما تعرض له داعية من هوى النفس وشرها الحسد الغريزي في الإنسان، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ وفي قصته في سفر التكوين أن يوسف قص رؤياه على أبيه وإخوته جميعاً من أول وهلة وما قصه الله هو الحق الذي روي بالتواتر القطعي وسفر التكوين غير مروي بالأسانيد المتصلة المتواترة، ولا دليل على أن أصله وحي من الله تعالى، ولكنه كتاب قديم التاريخ له قيمة لا تعصمه من الخطأ.

٦ - ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك، يجتبيك ربك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم فتكون من عباده المخلصين (بفتح اللام كما وصفه الله فيما يأتي قريباً) فالاجتباء افتعال من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك، والجباية جمع الشيء النافع كالماء في الحوض والمال للسلطان ولي الأمر ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي يعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤى وتعبيرها أي تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه في الوجود، وهو تأويلها كما سيأتي حكاية لقول يوسف لأبيه ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أو ما هو أعم من ذلك من معاني الكلام، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها، وقال بعض المفسرين وتبعه غيره إن الرؤيا حديث الملك إن كانت صادقة وحديث الشيطان إن كانت كاذبة، وهذا القول يخالف الواقع فإن رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر، وانما سميت رؤيا لأنها عبارة عما يرى في النوم كما ان الرؤية اسم لما يرى في اليقظة فهما كالقربة والقربى وفرق بينهما للتمييز، وقد يسمع رائيها أحاديث رجل يحدثه ولكن تأويل رؤياه يكون لجملة ما رآه وسمعه لا لما سمعه فيها فحسب، كما يقصه بحديثه على من يعبره له. أي يعبر به من مدلول حديثه اللفظي إلى ما يؤول إليه. وقد يكون قريباً كرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك، وقد يكون بعيداً كتأويل رؤيا يوسف نفسه، ولفظ الأحاديث اسم جمع سماعي كالأباطيل. والرؤيا الصادقة ضرب من إدراك نفس الإنسان أحياناً لبعض الأشياء قبل وقوعها باستعدادها الفطري، إما بعينها وهو قليل، وإما بمثال يدل عليها وهو المحتاج إلى التأويل، وسنبين الفرق بين الرؤيا الصادقة وبين أضغاث الأحلام، ورأي علماء الإفرنج ومقلديهم فيها في خلاصة السورة الإجمالية إن شاء الله تعالى، وتعليم الله التأويل ليوسف إيتاؤه إلهاماً وكشفاً للمراد منها أو فراسة خاصة فيها، أو علماً أعم منها، كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ

﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ روي عن ابن زيد انه قال في تأويل الأحاديث: تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس، وقال الزجاج تأويل أحاديث الأمم السالفة والكتب المنزلة.

زعم الزمخشري وتبعه مقلدوه ان هذه الجملة كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك ويتم نعمته عليك وبنى هذا على ما فهمه من دلالة الرؤيا على الاجتباء فقط، وما هذا الفهم إلا من تأثير قواعد النحو، والذي نجزم به أن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهماً مجملاً كل ما بشر به ابنه رائيها، وأما كيد إخوته له إذا قصها عليهم فقد استنبطه استنباطاً من طبع الإنسان، وعداوة الشيطان، فلما حذره من الاستهداف لذلك بإثارة حسدهم، قفى عليه ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه الخاص به، ومن تأويل الأحاديث وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس إلى رفعة قدره وعلو مقامه، فهو معطوف على الاجتباء مشترك معه في البشارة.

ثم عطف عليه ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أبواه وإخوته وذريتهم (وأصل الآل أهل بدليل تصغيره على أهيل، وهو خاص في الاستعمال بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي ﷺ وآل الملك ويقال لغيرهم أهل) بإخراجهم من البدو، وتبوئهم المقام الكريم بمصر، ثم بتسلسل النبوة في أسباطهم إلى أجل معلوم ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا العهد أو من قبلك ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ هذا بيان لكلمة أبويك وهما جده وجد أبيه، وقدم الأشرف منهما، وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبي ﷺ يا ابن عبد المطلب بل قالها هو أيضاً، وهذا التشبيه مبني على ما كان يعلمه يعقوب من وعد الله لإبراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وإنما علم من رؤيا يوسف أنه هو حلقة السلسلة النبوية الاصطفائية بعده من أبنائه،

فلهذا علل البشارة بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يصطفيه، حكيم باصطفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها له، وكان هذا العلم من يعقوب بما بشر الله به أبويه لهما ولذريتهما، وبدلالة رؤيا يوسف على أنه هو حلقة السلسلة الذهبية لهم، هو السبب كما قلنا لزيادة حبه له وعطفه وحرصه عليه، الذي هاج ما كان يحذره من حسد إخوته وكيدهم له، ولكونه لم يصدق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص إيمانه بما أعده الله له وهم به، ولكن علمه بذلك كان إجمالياً لا تفصيلياً، وقد جاءت قصته من أولها إلى آخرها مفصلة لهذا الإجمال، تفصيلاً هو من أبدع بلاغة القرآن، وزاد بعض المفسرين في التشبيه انجاء إبراهيم من النار وانجاء إسحاق من الذبح ولكن التحقيق أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق كما يدل عليه قوله تعالى بعد قصته من سورة الصافات ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ وكون القصة كانت في الحجاز وهي الأصل في أضاحي منى هناك، وإنما الذي نشأ في الحجاز إسماعيل لا إسحاق كما هو معلوم بالتواتر.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما في صفة القرآن وكونه تنزيلاً من الله دالاً على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربياً تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلاً عما جاءه فيه لا يدري منه شيئاً، ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الخ.

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهماً إجمالياً كلياً كما بيناه آنفاً وبنى عليه أن حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته، وبشره بحسن

عاقبته، ونتيجة هاتين القضيتين ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ الخ.

فمثل هذا الترتيب المنطقي العقلي البديع يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والإحاطة بدقائقها، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لأجلها، فتجعل الأولى براعة مطلع، والآخرة براعة مقطع، فقل لمن جهل سيرة محمد ﷺ وتاريخه: إن محمداً لم يكن قارئاً ولا كاتباً، ولا خطيباً ولا شاعراً، ولا مؤرخاً، ولا راوياً، ولا حافظاً للشعر ولا ناثراً، بل كان كما قال الله تعالى غافلاً عن هذه القصة وكل ما جاء في القرآن، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئاً فنهي عن ذلك عند ما عرض له في أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وبقوله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] وقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى] وقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] فلما ضمن ربه له أمن ضياع شيء منه بعدم حفظه عند تلقيه، أو نسيانه بعده، زال خوفه، وترك الاستعجال بقراءته.

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المكية حتى الطوَل منها كسورة الأنعام فلم يكن يدري من هذا الترتيب والنسق لها ولا من موضوعها شيئاً قبل وحيها، ولا يحيط به إلا أن يكمل له تلقيها عن الروح الأمين ، عليهما السلام، ولكن العجب أن يغفل عنه أو يجهله أحد من المفسرين فرسان البلاغة الفنية، والآن وقد بينته لقارىء هذا التفسير ليفطن لدلالة السورة بنظمها وبلاغتها على إعجاز القرآن اللفظي، وبما فيها من التشريع وعلم الغيب على إعجازه المعنوي،

وبالإعجازين كليهما على نبوة محمد ﷺ ورسالته أشرع في تفسير القصة متبرئاً من حولي وقوتي إلى حول الله وقوته، وهي:

٧ - ﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقاً، وباطنها مشرقاً، وبدايتها شراً وخسراً، وعاقبتها خيراً وفوزاً، وصدق قول الله عز وجل ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو

﴿عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ الآية، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان. ومن علم يوسف بتأويل الأحاديث، ومن رؤيته لبرهان ربه، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة، في القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني، وهي أخفى مما قبلها، وأحق بالسؤال عنها.

وقيل أن المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاءوا مكة وسألوا النبي ﷺ سؤال امتحان عن نبي كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة، وروي أن بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف، وروي أن بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الأحد عشر التي رآها يوسف في منامه ولم يكن يعرفها فنزل عليه جبريل فلقنه إياها فجاءت موافقة لما في التوراة، وذكروا هذه الأسماء في تفاسيرهم، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد ﷺ ولا يصح من هذه الروايات شيء بل هي من الإسرائيليات، وليس في التوراة ذكر لأسماء هذه الكواكب، وقصة يوسف في القرآن موافقة لجملة ما في سفر التكوين ومخالفة له في بعض دقائقها وسنذكر من ذلك غير ما ذكرنا آنفا.

٨ - ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي إن في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدؤا فيه بقولهم جازمين مقسمين: ليوسف وأخوه الشقيق له واسمه بنيامين أحب إلى أبينا منا كلنا[1] ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال أقوياء أشداء متعصبون نقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ

(١) الإخبار باسم التفضيل مفرداً كما هنا يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً، والمعرف بأل تجب فيه المطابقة وبالإضافة يجوز فيه الوجهان.

﴿مُّبِينٍ﴾ إنه لفي تيه من المحاباة لهما ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالاً بيناً لا يخفى على أحد إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة، على العصبة أولي القوة والكسب والنجدة. وهذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين وخطأ كبير، لعل سببه اتهامهم إياه بإفراطه في حب أمهما من قبل، فيكون مثاره الأول اختلاف الأمهات بتعدد الزوجات ولا سيما الإماء منهن(*)، وهو الذي أضلهم عن غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم وكانا أصغر أولاده، فقد سئل والد بليغ: أي ولدك أحب اليك؟ قال صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يحضر، ومريضهم حتى يشفى، وفقيرهم حتى يغنى (وأشك في هذه الأخيرة).

ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقاً، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء. وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه. ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا.

دلائل العشق لا تخفى على أحد ... كحامل المسك لا يخلو من العبق

(*) كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولداً ذكراً وهم (١) رأوبين بكر يعقوب (٢) وشمعون (٣) ولاوي (٤) ويهوذا (٥) ويساكر (٦) وزبولون وهؤلاء من ليئة بنت خاله لابان (٧) ويوسف (٨) وبنيامين من راحيل بنت خاله الأخرى، وهما أصغر أولاده (٩) ودان (١٠) ونفتالي من بلهة جارية راحيل (١١) وجاد (١٢) وأشير من زلفى جارية ليئة. وهؤلاء الأولاد ولدوا له وهو في فدان ارام يرعى غنم خاله لابان مهراً لابنتيه ليئة وراحيل وأجراً لما زاده من خدمته في رعيها وعاد بهم بعد انقضاء الأجل وبما أخذ من غنم خاله إلى أرض كنعان إلا بنيامين فقد ولد في كنعان.

٩ - ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي اقتلوه قتلاً لا مطمع بعده ولا أمل في لقائه، أو انبذوه كالشيء اللقا الذي لا قيمة له في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا أو عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة إلى أبيه سبيلاً إن هو سلم فيها من الهلاك ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيكن كل توجهه إليكم، وكل إقباله عليكم، بخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشارككم في عطفه وحبه، وهذه الجملة من فرائد درر الكلام البليغ بتصويرها حصر الحب وتوجه الإقبال والعطف بصورة الضروريات التي لا اختيار للرأي ولا للإرادة فيها، لا من ظاهر الحس، ولا من وجدان النفس، بعد وقوع هذه الجناية التي تقتضي إعراض الوجه، وأعراض الكراهة والمقت ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد يوسف أو من بعد قتله وتغريبه ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله من هذه الجريمة، مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها، وعدم التصدي لمثلها، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى ولا يزال ينزغ له ويسول، ويعد ويمني ويؤول، حتى يرجح داعي الإيمان، او يجيب داعي الشيطان، وهذا الذي غلب على إخوة يوسف فكان، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله.

١٠ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أبهمه القرآن لأن تعيينه بتسميته لا فائدة منها في عبرة ولا حكمة، وإنما الفائدة في وصفه بأنه منهم، وهي أنهم لم يجمعوا علي جناية قتله. وقال السدي انه يهوذا، وفي سفر التكوين انه رأوبين ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ الجب البئر غير المطوية أي غير المبنية من داخلها بالحجارة وهو مذكر والبئر مؤنثة وتسمى المطوية منها طويّاً، وغيابته بالفتح ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلّى فيه لإخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خلل عرض له، وعلم من التعريف أنه جب معروف كان هنالك حيث يرعون، وجواب ألقوه ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ وهم جماعة المسافرين

الذين يسيرون في الأرض يقطعون الأرض من مكان إلى آخر لأجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الأقطار البعيدة فيتم لكم الشق الثاني مما اقترحتم وهو إبعاده عن أبيه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما هو الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها، فعلام إسخاط الله باقترافها والغرض يتم بما دونها؟ وفي سفر التكوين أن رأوبين مكر بهم إذ كان يريد أن يخرجه من الجب ويرجعه إلى أبيه، وانهم وضعوه في البئر وكانت فارغة لا ماء فيها، فمرت بهم سيارة من تجار الإسماعليين (العرب) مسافرة إلى مصر، فاقترح عليهم يهوذا إخراجه وبيعه لهم إذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا، فهذا ما دار بينهم وأجمعوه من أمرهم.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

هذا بيان مستأنف لما كادوا به أباهم بعد ائتمارهم بيوسف ليرسله معهم وهو الحق. وفي سفر التكوين أن أباهم هو الذي أرسله إليهم بعد ذهابهم.

١١ - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يعنون أي شيء عرض لك من الشبهة في أمانتنا فجعلك لا تأمنا على يوسف؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ويظهر أنهم قد علموا بها، كما أنه شعر منهم بالتنكر له على حد قول الشاعر * كاد المريب بأن يقول خذوني* ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي والحال إنا لنخصه بالنصح الخالص من شائبة التفريط أو التقصير، أكدوا هذه الدعوى بالجملة الاسمية المصدرة بأن وتقديم ﴿لَهُۥ﴾على خبرها واقترانه باللام. ولولا شعورهم بارتيابه فيهم لما احتاجوا إلى كل هذا التأكيد.

١٢ - ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي أرسله معنا غداة غد إذ نخرج كعادتنا إلى مراعينا في الصحراء يرتع معنا ويلعب. وقرىء في المتواتر أيضاً (نرتع ونلعب) بنون الجماعة وهي مفهومة من قراءة الياء فإن المراد من خروجه معهم مشاركته إياهم في رياضتهم وأنسهم وسرورهم بحرية الأكل واللعب والرتوع وهو أكل ما يطيب لهم من الفاكهة والبقول، وأصله رتع الماشية حيث تشاء. قال الزمخشري في الكشاف: (نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة. اهـ. وأما لعب أهل البادية فأكثره السباق والصراع والرمي بالعصي والسهام إن وجدت. وسيأتي أن لعبهم كان الاستباق بالعدو على الأرجل ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ما دام معنا نقيه من كل سوء وأذى، أكدوا هذا الوعد كسابقة مبالغة في الكيد.

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه أرسله معنا غداً نرتع ونلعب، قال نسعى ونلهو. وعن ابن زيد (يرتعي بالياء وكسر العين قال يرعى غنمه وينظر ويعقل ويعرف ما يعرف الرجل) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن هارون قال: كان أبو عمرو يقرأ (نرتع ونلعب) بالنون فقلت لأبي عمرو: كيف يقولون (نرتع ونلعب) وهم أنبياء؟ قال: لم يكونوا يومئذ أنبياء. وقد توسع بعض المفسرين في هذه المسألة وعدوها مشكلة لظنهم ان اللعب غير جائز وقوعه من الأنبياء. والتحقيق ان من اللعب ما هو نافع فهو مباح أو مستحب، ومنه ملاعبة الرجل لزوجه وملاعبتها له كما ورد في الحديث الصحيح، وأن أخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده كما حققناه في محله. وأن من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح في نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لأخيهم والائتمار بقتله وتعمد إيذائه وفجيعة أبيهم به وكذبهم عليه وغير ذلك من كبائر المعاصي!!

١٣ - ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي قال أبوهم جواباً لهم إني ليحزنني ذهابكم به بمجرد وقوعه، والحزن ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه.

وفعله من باب قتل في لغة قريش وتعديه تميم بالهمزة واللام في قوله ليحزنني للابتداء ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ والخوف ألم النفس مما يتوقع من مكروه قبل أن يقع ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي في حال غفلة منكم عنه واشتغال عن مراقبته وحفظه بلعبكم، قيل لو لم يذكر خوفه هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع، ولعله قائله من باب الاحتياط أو الاعتذار بالظواهر، وإن كان يعلم حسن عاقبته في الباطن، على أن علمه هذا كان مجملاً مبهماً ومقيداً بالأقدار المجهولة كما أشرنا إليه من قبل.

١٤ - ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي والله لئن اختطفه الذئب من بيننا وأكله والحال اننا جماعة شديدة القوى تعصب بنا الأمور، وتكفى ببأسنا الخطوب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وخائبون في اعتصابنا أو لهالكون لا يصح أن نعد من الأحياء الذين يعتد بهم ويركن إليهم، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط.

أجابوه عما يخافه بما يرجون أن يطمئنه، وأما حزنه فلا جواب عنه لأنه في حد ذاته لا بد منه وليس في استطاعتهم منعه، إذ هو لازم لفراقه له ولو فراقاً قليلاً فيه منفعة ليوسف في صحته بترويض جسمه في ضحى الشمس وهبوب الرياح وحركة الأعضاء في زمن قصير يعود بعده فيزول حزنه ويكون سروره مضاعفاً لو صدقوا.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ
﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ
ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآيات الأربع في بيان ما نفذوا به عزمهم بالفعل، وما اعتذروا به لأبيهم من كذب، وما قابلهم من تكذيب وصبر، واستعانة بالله عز وجل، قال:

١٥ - ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ في الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباه عن إمساكه عنده ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ أي أزمعوه وعزموا عليه عزماً إجماعياً لا تردد فيه بعد ما كان من اختلافهم قبل في قتله أو تغريبه، وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف للعلم به مما قبله ومما بعده وتقديره نفذوه بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عند إلقائه فيه وحياً إلهامياً علم أنه منا مضمونه: وربك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ معك إذ يظهرك الله عليهم ويذلهم لك ويجعل رؤياك حقاً ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يومئذ بما آتاك الله، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك، أو بهذا الوحي في الجب وهو المرتبة الأولى من مراتب التكليم الإلهي للأنبياء بعد التمهيد له بالرؤيا الصادقة. وقد هون الله تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن، وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا ما لا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الإسرائيليات المنفرة من الإسلام والمسلمين.

١٦ - ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ أي جاءوه في وقت العشاء إذ خالط سواد الليل بقية بياض النهار فمحاه حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يبغون وقد بينه تعالى بقوله:

١٧ - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره، فالاستباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق ومنه ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المائدة:٤٨] فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب، وقوله الآتي في هذه السورة ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ كان يقصد به يوسف الخروج من الدار هرباً من حيث تقصد امرأة العزيز بإتباعه إرجاعه، وصيغة المشاركة لا تؤدي هذا المعنى، ولم يفطن الزمخشري علامة اللغة ومن تبعه لهذا الفرق

الدقيق ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ من فضل الثياب وماعون الطعام والشراب (مثلاً) يحفظه إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذي يرهق به قوانا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق لنا في قولنا هذا لإتهامك إيانا بكراهة يوسف وحسدنا له على تفضيلك إياه علينا في الحب والعطف ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ في الأمر الواقع أو نفس الأمر، أو - ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذا الخبر لشدة وجدك بيوسف.

١٨ - ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاؤا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلاً على كذبهم، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل، ومنه *فهن به جود وأنتم به بخل* وقال ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليصور للقاريء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعاً متكلفاً ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقاً والدم متغلغلاً في كل قطعة منه، ولهذا كله لم يصدقهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله بل سهلت لكم الأمارة بالسوء أمراً إمراً، وكيداً نكراً، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه، أي هذا أمركم وأما أمري معكم ومع ربي ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أو فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها غيره أحداً منكم ولا من غيركم.

هذا هو الفصل الأول من قصة يوسف وهو صفوة الحق من أحسن القصص بما فيه من الدقة والعبرة، وقد شوهه رواة الأساطير والمفتريات الإسرائيلية بما ظنوا

أنه من أخبار التوراة وما هو منها ومن شاء فليقرأ هذا الفصل من قصة يوسف في سفر التكوين ليرى الفرق البعيد بين كلام الله وكلام البشر، وليعلم المغرور بما نقله المفسرون من الإسرائيليات فيها كالسدي الكبير الذي هو أقل كذباً وأكثر إتقاناً لأساطيره من السدي الصغير، أنْ كلِّ ما فيها من الزيادة لا أصل له عند أهل الكتاب، ولا هو مروي عن نبينا ﷺ فهو كذب صراح(*).

---

* الفصل أو الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين:

وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان ٢ هذه مواليد يعقوب إذ كان يوسف ابن سبع عشرة سنة وكان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة إمرأتي أبيه. وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم ٣ وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته، فصنع له قميصاً ملوناً ٤ فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ٥ وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا ايضاً بغضاً له ٦ فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ٧ فها نحن حازمون حزما في الحقل واذا حزمتي قامت وإنتصبت فاحتاطت حزمتكم وسجدت لحزمتي ٨ فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً، وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه ٩ ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على إخوته، فقال إني قد حلمت حلماً أيضاً واذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي ١٠ وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ١١ فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر ١٢ ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم(١) ١٣ فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعالى فأرسلك إليهم فقال له هاأنذا ١٤ فقال له إذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً، فأرسله من وطاء حبرون(٢) فأتى إلى شكيم ١٥ فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلاً ماذا تطلب ١٦ فقال أنا طالب إخوتي أخبرني ابن يرعون ١٧ فقال الرجل قد إرتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان، فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان ١٨ فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه ١٩ فقال بعضهم لبعض هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم ٢٠ فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ٢١ فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله ٢٢ وقال لهم رأوبين لاتسفكوا دماً، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً، لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه ٢٣ فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذي عليه ٢٤ وأخذوه وطرحوه في البئر، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ٢٥ ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلساناً ولاذناً ذاهبين لينزلوا بها إلى

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

هاتان الآياتان في استعباد قافلة من التجار ليوسف عليه السلام والإتجار به.

١٩ - ﴿وَجَآءَتْ﴾ ذلك المكان الذي كانوا فيه ﴿سَيَّارَةٌ﴾ صيغة مبالغة من السير (كجوالة وكشافة) أي جماعة أو قافلة وفي سفر التكوين أنهم كانوا من الإسماعليين أي من العرب ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ المختص بورود الماء للإستقاء لهم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسله ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف فلما خرج ورآه ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ يبشر به جماعته السيارة. قرأها الجمهور يا بشراي بالإضافة إلى ياء المتكلم والكوفيون بدونها وأمال ألفها حمزة والكسائي. ونداء البشرى معناه أن هذا وقتها وموجبها فقد آن لها أن تحضر، ومثله قولهم: يا أسفا ويا أسفي، ويا حسرتا ويا حسرتي، إذا وقع ما هو سبب لذلك. فاستبشر به السيارة ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أخفوه

مصر ٢٦ فقال يهوذا لأخوته ما الفائدة ان نقتل أخانا ونخفي دمه ٢٧ تعالوا فنبيعه للإسماعليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته ٢٨ واجتاز رجال مديانيون تجار، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر ٢٩ ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ٣٠ ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ٣١ فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم ٣٢ وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص إبنك هو أم لا؟ ٣٣ فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف إفتراساً ٣٤ فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة ٣٥ فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال إني أنزل إلى إبني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه ٣٦ وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط.

---

(١) شكيم هذه في محل نابلس اليوم.
(٢) هي مدينة الخليل، والوطاء الوادي.

من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم، والبضاعة ما يقطع من المال ويفرز للإتجار به، مشتق من البضع وهو الشق والقطع ومنه البضعة والبضع من العدد وهي من ثلاث إلى تسع والبضعة من اللحم وهي القطعة. وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة أو ان الضمير في أسروه لأخوة يوسف فهو خلاف الظاهر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله إخوة يوسف فلكل منهم أرب في يوسف: السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به، وإخوة يوسف أمرهم مع أبيهم في إخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب إياه معلوم وأنه كيد باطل. وحكمة الله تعالى فيه فوق كل ذلك.

٢٠ - ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسࣲ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةࣲ﴾ شرى الشيء يشريه باعه واشتراه ابتاعه، أي باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله على أنه ليس له مثل، هو دراهم لا دنانير، معدودة لا موزونة، وإنما يعد القليل ويوزن الكثير، وكانت العرب تزن مابلغ الأوقية وهي أربعون درهماً فما فوقها وتعد ما دونها، ولهذا يعبرون عن القليلة بالمعدودة، والبخس في اللغة الناقص والمعيب ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ وروي تفسيره هنا بالحرام وبالظلم لأنه بيع حر فيكون وصفه بدراهم معدودة مستقلاً لا تفسيراً لبخس، وظاهر النظم أن الذين شروه هم السيارة وفي سفر التكوين أن إخوته قرروا بيعه للإسماعليين، وقد أخرجه من الجب جماعة من مدين وباعوه لهم وقد بعد ذكرهم، ويحتمل أن يكون لفظ شروه قد استعمل بمعنى اشتروه وهو مسموع، ويكون المراد أنهم اشتروه من إخوته بثمن بخس ثم باعوه في مصر بثمن بخس أيضاً، وهو إدماج من دقائق الإيجاز، وأما الثمن البخس الذي بيع به ففي سفر التكوين أنه كان عشرين (شاقلاً) من الفضة وقدر علماء التاريخ القديم الشاقل بخمسة عشر غراماً من الوزن العشري اللاتيني المعروف في عصرنا فيكون ثمنه ٣٠٠ غراماً من الفضة وهي تقرب من ٩٤ درهماً من دراهمنا اليوم،

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عشرون درهماً ولعله سمعه عن اليهود فظن أن العشرين عندهم هي الدراهم عند العرب ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لأنه حر، والثمن لم يكن مقصوداً لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه.

حادثة يوسف مع امرأة العزيز

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

هاتان الآيتان تمهيد للقصة في وجهة نظر مشتريه فيه وتمكين الله له وتعليمه وغلبه على أمره وإيتائه حكماً وعلماً وشهادته بإحسانه.

٢١ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، ولكن وصفه النسوة فيما يأتي بلقب العزيز وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر، فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك، وللمفسرين أقوال في اسمه وإسمها واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها. وفي سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون، وأن اسمه فوطيفار، ووصف فيه بالخصي ولكن الخصيان لا يكون لهم أزواج فقيل في تصحيحه لعله لقب لا يقصد به هذا المعنى. وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة إذ أوصى امرأته بإكرام مثواه، والمثوى مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي (كرمى يرمي) ثواء أي أقام، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص بإقامته بحيث

يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فيكون قرة عين لنا، ووارثاً لمجدنا ومالنا، إذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو أن يكون له، وروي أنه كان عقيماً. وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده، وكانت صالحة ملهمة، وأما العزيز فكان ذكياً صادق الفراسة فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه، وذكائه وحسن خلاله، على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته، خير متمم لحسن استعداده الفطري، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة وسوء القدوة، وما كان إلا صادق الفراسة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا العزيز مبدأها ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك فيكون وسيلة للوصول إليه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الأمور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين، وقوله للملك ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وقول الملك له ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي على كل أمر يريده ويقدره فلا يغلب على شيء منه بل يقع كما أراد، فكل ما وقع ليوسف من إخوته ومن مسترقيه وبائعيه ومن توصية الذي اشتراه لامرأته بإكرام مثواه ومما وقع له مع هذه المرأة وفي السجن قد كان من أسباب ما أراده تعالى له من تمكينه في الأرض، وإن كان ظهره على خلاف ذلك، ويجوز أن يكون المعنى أن الله غالب على أمر يوسف فهو يدبره ويلهمه الخير ولا يكله إلى تدبير نفسه واتباع هواه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الأمور،

كما استدل إخوة يوسف بإبعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بَعد بُعده عنهم قوماً صالحين. ويقابل الأكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام، فقد كان يعلم أن الله غالب على أمره، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المخبوءة في مطاوي الأقدار كما قلنا من قبل.

بدئت هذه القصة ببيان إيتاء الله الحكم والعلم ليوسف عند استكمال سن الشباب وبلوغ الأشد، وان هذا العطاء جزاء منه سبحانه له على إحسانه في سيرته منذ سن التمييز لم يكن مسيئاً في شيء قط، وختمت بشهادته تعالى بما كان من اقتناع العزيز ببراءته من الخطيئة والتياث امرأته بها وحدها قال عز وجل:

٢٢ - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي رشده وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي وهبناه حكماً إلهامياً وعقلياً بما يعرض له أو عليه من النوازل والمشكلات مقروناً بالحق والصواب، وعلماً لَدُنِّياً وفكرياً بحقائق ما يعنيه من الأمور، وهذه السن في عرف الأطباء تتم في خمس وعشرين سنة، ولأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال فعن عكرمة أنها ٢٥ سنة وعن ابن عباس أنها ثلاث وثلاثون سنة ولعله أخذه من قوله تعالى في كمال البنية الإنسانية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف:١٥] فجعلها درجتين بلوغ الأشد وبلوغ الأربعين وهي سن الاستواء كما قال في موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [القصص] فالأول مبدأ استكمال النمو العضلي والعصبي والثاني مستواه، وبه يتم الاستعداد للنبوة ووحي الرسالة وقد ثبت عن علماء النفس والاجتماع أن الإنسان يظهر استعداده العقلي والعلمي بالتدريج حتى إذا بلغ خمساً وثلاثين سنة لا يظهر فيه شيء جديد من العلم الكسبي غير ما ظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن، وإنما يكمل ما كان ظهر منه إذا هو ظل مزاولاً له

ومشتغلاً بتكميله، وقد بينا ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس] وفصلناه في كتاب الوحي المحمدي وقد ظهر حكم يوسف وعلمه بعد بلوغ أشده في مصر كما يأتي تفصيله في مواضعه ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الإحسان، الثابتين عليه بالأعمال، الذين لم يدنسوا فطرتهم ولم يدسوا أنفسهم بالإساءة في أعمالهم، نؤتيهم نصيباً من الحكم بالحق والعدل، والعلم الذي يزينه ويظهره القول الفصل، فيكون لكل محسن حظه من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه، وبما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله، وجودة فهمه وفقهه، غير ما يستفيده بالكسب من غيره، لا يؤتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم، وقال ابن جرير الطبري: وهذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ يقول له عز وجل كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من إخوته ما لقي ... فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض الخ وأقول لا شك أن هذه السنة في جزاء المحسنين عامة ولكل محسن منها بقدر إحسانه، وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

مسألة المراودة والهم والمطاردة

٢٣ - ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة

وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه وما عللها به من حسن الرجاء فيه، وما بينه الله تعالى من عنايته به وتمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض، يقول إن هذه المرأة التي هو في بيتها نظرت اليه بغير العين التي نظر إليه بها زوجها، وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراده الله من فوقهما، هو أراد أن يكون قهرمانا أو ولداً لهما، والله أراد أن يمكن له في الأرض ويجعله سيد البلاد كلها، وهي أرادت أن يكون عشيقا لها، وراودته عن نفسه أي خادعته عنها وراوغته لأجل ان يرود أو يريد منها ما تريد هي منه مخالفاً لإرادته هو وإرادة ربه، والله غالب على أمره، قال في المصباح المنير: أراد الرجل كذا إرادة وهو الطلب والاختيار، وراودته على الأمر مراودة ورواداً من باب قاتل طلبت منه فعله وكأن في المراودة معنى المخادعة لأن المراود يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه وقال الراغب: المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، وذكر شواهد الآيات في هذه القصة ومنها قول إخوة يوسف له ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل أخاه معنا. وقال في أساس البلاغة: وراوده عن نفسه خادعه عنها وراوغه، وقال في الكشاف المراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحيل لمواقعته إياها. اهـ. ولو رأت منه أدنى ميل إليها وهي تخلو به في مخادع بيتها لما احتاجت إلى مخادعته بالمراودة، ولما خابت في التعريض له بالمغازلة والمهازلة، تنزلت إلى المكاشفة والمصارحة، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها لم يشاركها فيه، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي أحكمت إغلاق باب المخدع الذي كانا فيه وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء وباب الدار الخارجي، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ أي هلم أقبل وبادر، وزيادة ﴿لَكَ﴾ بيان للمخاطب كما يقولون هلم لك وسقيا لك. واقتصر على هذا في

التنزيل، وهو منتهى النزاهة في التعبير، والله أعلم بها زادته من الإغراء والتهييج الذي تقتضيه الحال، ونقل رواة الإسرائيليات عنها وكذا عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة أنه كذب فإن مثله لا يُعلم إلا من الله تعالى أو بالرواية الصحيحة عنها أو عنه ولا يستطيع أن يدعي هذا أحد كما يأتي قريباً. وهيت اسم فعل قريء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبضمها كحيث، وروي انها لغة عرب حوران، وكان سبب اختيارها أنها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم، وهو ما لم يعقله أولئك الرواة لما يخالفه ويناقضه ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً وأتحصن به فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين، كما قال بعد ان استعانت عليه بكيد صواحبها من النسوة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وجملة قال معاذ الله الخ بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال تقديره: وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له؟ وهو كما قالت مريم ابنة عمران للملك الذي تمثل لها بشرا سوياً ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم] وعلل هذه الاستعاذة بقوله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي إنه تعالى ولي أمري كله أحسن مقامي عندكم وسخركم لي بها وفقني له من الأمانة والصيانة فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة وإن كان حراً مظلوماً في الحقيقة، كما يقال رب الدار، وكان من عرفهم اطلاقه على الملوك والعظماء كما يأتي في قوله عليه السلام لساقي الملك في السجن ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ولكن الله عاقبه أنه لم يذكر حينئذ ربه، فكان نسيانه له سبباً لطول مكثه في السجن كما يأتي، ثم إنه قال لرسول الملك: إذ جاءه يطلبه لأجله ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وعلى هذا القول وقد جرى عليه الجمهور يكون الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ما يسمونه ضمير الشأن

والقصة أي إن الشأن الذي أنا فيه هو أن سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في إقامتي عندكم وأوصاك بإكرام مثواي فلن أجزيه على إحسانه بشر الإساءة وهو خيانته في أهله، وهذا التفسير تعليل لرد مراودتها بعد الاستعاذة بالله منها، لا تعليل للاستعاذة نفسها كالأول، والفرق بينهما دقيق لما بينهما من العموم في الأول والخصوص في الثاني. ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم وللناس كالخيانة لهم والتعدي على أعراضهم وشرفهم، لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الإمامة الصالحة والرياسة العادلة، ولا في الآخرة بجوار الله ونعيمه ورضوانه ... وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالإيمان بالله والأمانة للسيد صاحب الدار والتعريض بخيانة امرأته له المتضمن لاحتقارها ما أضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام، مضاعفة لنار الغرام، وهو ما بينه تعالى بقوله مؤكداً بالقسم لأنه مما ينكره الأخيار من شرور الفجار.

٢٤ - ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومراوَدة عن نفسها لا مراوِدة، حتى ان حماة الأنوف من كبراء الرجال، ليطئطؤن الرءوس للفقيرات الحسان ربات الجمال، ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وأزواجهم ولا يأبون أن يسموا أنفسهم عبيداً لهن، كما روي عن بعض ملوك الأندلس.

نحـن قـوم تـذيبنا الأعـين النجـــ ـــل عـلى أننـا نـذيب الحديـداً
فترانـا لـدى الكريهـة أحـرا راً وفي السلم للمـلاح عبيـداً

ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله، وفي جلاله وكماله، وفي إبائه وتألهه، قد عكس القضية، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين

عزة سيادتها وسلطانها، ودهور الاميرة (الارستقراطية) من عرش عظمتها وتكبرها، وأذلها لعبدها وخادمها، بما هونه عليها: قرب الوساد، وطول السواد[1] والخلوة من وراء الأستار والأبواب، حتى إنها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها، فيصد عنها علواً ونفاراً، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً، معتزاً عليها بالديانة والأمانة، والترفع عن الخيانة، وحفظ شرف سيده وهو سيدها وزوجها وحقه عليها أعظم، إن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام، هذا ما ثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها في كل زمان ومكان، وأكثر بما ترويه لنا منه قضايا المحاكم وصحف الأخبار، وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه، ما هو مصداق قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ وهو إما النبوة التي تلي الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد، وشاهده قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء] وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى في آيتي العصا واليد ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٣٢] وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجلياً له ناظرا إليه، وفاق لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك» فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه، لا صورة أبيه متمثلة في سقف

---

(١) السواد بالفتح شخص الإنسان وبالكسر مصدر ساوده إذا ساره فقرب سواده من سواده أي شخصه من شخصه. والكلمة لابنة الخص اعتذرت بها عن نفسها بعد ان فتنت فقيل لها: لم ... وأنت سيدة قومك؟ فقالتها فارسلتها مثلاً يجب أن يعتبر به الذين يتساهلون في السماح لنسائهم بالخلوة بالرجال من الخدم فضلاً عن غيرهم.

الدار، ولا صورة سيده العزيز في الجدار، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن، وأمثال هذه الصور التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بها لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحاح ولا فيها دونها، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة، ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة ولا سيما قوله في أوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وما فسر النبي ﷺ به الاحسان، وقوله في تعليله ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ما أرادته به أخيراً من السوء وما راودته عليه قبله من الفحشاء، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية في نفسه، فلا يصيبه شيء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص] وقد قلنا في أول القصة، إن يوسف هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية، وان أباه بشره بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فالاجتباء هو الاصطفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (المُخْلِصِينَ) بكسر اللام. والقراءتان متفقتان متلازمتان فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء فإنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما، وهمه لأول وهلة بدفع صيالها هم بأمر مشروع وجد مقتضيه مقترناً بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها وإهانته لها فلما

رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف المواثبة، والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته مالم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحاً للمانع على المقتضي، وتبعته هي مرجحة للمقتضي على المانع حتى صار جزماً، واستبقا باب الدار، وكان من أمرهما ما يأتي بيانه في الآية التالية، ونقدم عليه رأى الجمهور في الهم من الجانبين.

رأي الجمهور في همت به وهم بها وبيان بطلانه

ذهب الجمهور المخدوعون بالرويات إلى أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا مانع منها، وهم هو بمثل ذلك ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها، ولم يستح بعضهم أن يروي من أخبار اهتياجه وتهوكه فيه ووصف انهماكه وإسرافه في تنفيذه، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه، ما لا يقع مثله إلا من أوقح الفساق المسرفين المستهترين، الذين طال عليهم عهد استباحة الفواحش وألفتها حتى خلعوا العذار، وتجردوا من جلابيب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى وحلل الآداب، كأهل مدنية هذا العصر من الرجال والنساء في مواخير البغاء السرية، وما يقرب منه في حمامات البحر الجهرية، حتى كادوا يعيدون للعالم فجور مدينة (بومباي) الرومانية، التي خسف الله بها وأمطر عليها من براكين النار مثلما أمطر على قرية قوم لوط من قبلها، فإن مثل هذا افتروه في قصة هذا النبي الكريم لا يقع مثله ممن ابتلي بالمعصية أول مرة من سليمي الفطرة، ولا من سذج الأعراب الذين لم تغلبهم صورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطري وإيمانهم وحيائهم من نظر ربهم إليهم، فضلاً عن نبي عصمه الله ووصفه بما وصف وشهد له بما شهد، وقد بلغ ببعضهم (كالسدي) الجهل بالدين والوقاحة وقلة الأدب أن يزعموا أن يوسف عليه السلام لم ير برهاناً واحداً بل رأى عدة براهين من رؤية والده متمثلاً له منكرا عليه، وتكرار وعظه له، ومن رؤية بعض الملائكة ونزولهم عليه بأشد زواجر

القرآن بآيات من سوره، فلم تنهنه من شبقه، ولم تنهه عن غيه، حتى كان أن خرجت شهوته من أظافره، ومعنى هذا أنه لم يكف إلا عجزا عن الإمضاء، أفبهذا صرف الله عنه السوء والفحشاء، وكان من عباد الله المخلصين، وأنبيائه المصطفين المجتبين الأخيار؟

ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا هذه الرويات الإسرائيلية الحمقاء، حماية لعقيدة عصمة الأنبياء، فانه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها في أنفسهم، وتسليمهم لهم أن الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة، إلا من خالف قواعد اللغة فقال إن قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب لقوله ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ومن قال إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله، فهو على هذين القولين لم يهم بشيء، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها، وتأوله بعضهم بأن همه بالفاحشة بمقتضى الداعية الفطرية لا ينافي العصمة وإنما ينافيها طاعتها بدليل ما صح في الحديث أن من هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه، وأن امتناعه عنها بترجيح داعية الإيمان وطاعة الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الإيمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفاً عنها لقبحها، ولهم تأويلات من هذا ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها.

والتأويل الأخير أوله مقبول وآخره مردود، فههنا مرتبتان إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحاً لها خوفاً من الله تعالى، وهي مرتبة الصالحين الأبرار، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقاً في شهوده، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الأخيار، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع، بالصورة المحرمة في الشرع عارضها من وجدان الإيمان، وتجلي الرحمن، ما تغلب به روحانيتهم الملكية، على طبيعتهم الحيوانية، وهذا مما قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم، كما أشرنا اليه في تفسيره آنفا؟

ولهذه المرتبة درجات منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال، أو فقد الشعور بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع فيغلب أقواها أضعفها. حتى إن من الإباحيين والإباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها، لا خوفاً من الله ولا حياء منه لأنه غير مؤمن به أو بعقابه، بل وفاء لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه.

حدثنا مصور سوري كان زير نساء فاسق أنه كان في بعض الولايات المتحدة الأمريكانية فأعلن في بعض الجرائد أنه يطلب امرأة جميلة لأجل أن يصورها كما يشاء بجعل معين من المال وهذا معهود عند الإفرنج، فجاءه عدة من الحسان اختار إحداهن وخلا بها في حجرته الخاصة وأوصد بابها، وأمرها بالتجرد من جميع ثيابها، فتجردت فطفق يصورها على أوضاع مختلفة من انتصاب وانحناء، وميل والتواء، وإقبال وإدبار، وهو لا يفكر في غير إتقان صناعته، فعرض لها دوار في رأسها، فجلست على أريكة للاستراحة فجلس بجانبها، وأنشأ يلاعبها ويداعبها وهي ساكنة ساكتة، فتنبه في نفسه من الشعور ما كان غافلاً أو نائماً، فراودها عن نفسها، فتمنعت بل امتنعت، فعرض عليها المال فأعرضت، فقال لها أنت حرة في نفسك ولكني أرجو منك أن تجيبيني عن سؤال علمي هو ما بيان سبب هذا الامتناع؟ قالت سببه أنني عاهدت رجلاً يحبني وأحبه على أن يكون كل منا للآخر لا يشرك في الاستمتاع به أحداً، ولا يبتغي به بدلاً، فقال لها إني أهنئك وأحترم وفاءك هذا، ثم أتم صناعته ونقدها الجعل المعين فأخذته وانصرفت.

والراجح عندي ان هذه المرأة لم تشته مواتاة هذا الرجل فتجاهد نفسها على الامتناع، وأن المانع من اشتهائه توطين نفسها على الوفاء لعشيقها الأول حتى لم تعد تتوجه إلى الاستمتاع بغيره، وتوجيه النفس إلى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة، وتربية الإرادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل

باتفاق الحكماء والصوفية، ويسمي هؤلاء سالك طريق الحق مريداً، والواصل إلى غايته مراداً، أي مجتبى مختاراً، وهو لا يكون على كماله إلا لأصحاب الإيمان اليقيني الوجداني، ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف، كما قال أستاذنا في رسالة التوحيد، ولقد عجبنا أن أنكر علينا بعض المحرومين عن هذا ممن نعدهم بحق من الصالحين قولنا في المقصورة الرشيدية فيمن امتنع من رقية صدر فتاة حسناء:

أتت فتى خاف مقام ربه ... ما زال ينهى نفسه عن الهوى
لم يقترف فاحشة قط ولم ... يعزم ولا هم بها ولا نوى
بغرة منها وصفو نية ... في معزل تشهيه أقصى ما اشتهى
مما يمنيه به شيطانه ... من حيث لا يطمع منه في خنا
لكنه استعصم راوياً لها ... ما أمر الله به وما نهى

إذ ظن المنكر فيه أنه فضل نفسه على يوسف عليه السلام، وأين هذا من ذاك(*).

وجملة القول أن أعظم مزايا البشر في قوة الإرادة فلولاها لكان الإنسان كالحيوان الأعجم عبد الطبيعة، ولذلك كانت المراودة احتيالا لتحويل الإرادة وجعلها خاضعة للمراود، وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى، وفوق ذلك عناية الله تعالى (فتأمل وتدبر).

فإذا كان في أهل الإباحة والحرية المطلقة من تملك إرادتها ولا تلين لمراودها، ولا يغريها المال وهو المعبود الأكبر لامثالها في بلادها، فيحملها على نقض عهدها في مثل تلك الخلوة وذلك التجرد بين يدي مصورها، ولقد كان من أجمل الشباب، وأبرعهن في تصبي النساء، أفيكثر أو يستغرب في رأي أولئك الرواة أن يكون يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم في وراثته الفطرية والأدبية ومقام النبوة

(*) راجع هذه المسألة في ص ٥٤٥ من جزء التفسير التاسع وما قبلها وما بعدها.

عن آبائه الأكرمين، وما اختصه به ربه وكونه هو الغالب على أمره من تربيته وعنايته، وما شهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء، وما صرف عنه من دواعي السوء والفحشاء، وما قص علينا من شهادة تلك المرأة له على نفسها بقولها ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي استمسك بعروة العصمة الوثقى التي لا انفصام لها، ثم ما شهد له به صواحبها من المراودات من قولهن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي أدنى شيء سيء، ثم ما أيدت به شهادتهن من قولها ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أيكثر عليه أو يستغرب منه أن يكون أملك لنفسه من تلك المرأة الإباحية، أو بمنجاة من الهم الذي زعموه، وصوروه بشر ما تصوروه، أو بما صوره لهم مضلوهم من زنادقة اليهود ليلبسوا عليهم دينهم، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم؟ ثم يكون منتهى شوط المنكرين عليهم أن يتأولوا تفسيرهم تأويلاً، والقرآن يتبرأ منه بلغته وأسلوبه وأدبه وهدايته والعبرة المرادة منه لخاتم رسله والمؤمنين به، ولا يغرنك إسناد تلك الرويات إلى بعض الصحابة والتابعين، فلو لم يكن لنا من الأدلة على وضعها عليهم أو تصديقهم لقول بعض اليهود فيها إلا بطلان موضوعها في نفسه، وكونه من علم الغيب في القصة التي لم يعلم رسول الله منها غير ما قصه الله عليه في هذه السورة كما صرح به في الآية (١٠٢) آخرها – لو لم يكن لنا من أدلة وضعها غير هذا لكفى، فكيف وهي مخالفة للقرآن في لغته كمخالفتها له في هدايته أيضا.

رد قول الجمهور في تفسير همها وهمه عليه السلام:

فأنا أرد على جميع من فسروا هم المرأة بغير ما اخترته لا همه وحده، وأقول لولا الغرور بالروايات الباطلة لم يخطر لأحد منهم غيره، أرد عليهم بعبارة القرآن في مدلولها اللغوي فهو حجة عليهم فأقول:

أجمع أهل اللغة على أن الهم إنما يكون بالأعمال، لا بالشخوص والأعيان،

وتحقيق معناه أنه مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي فلم يقع لرجحان المانع، وهو الموافق لقول علماء الأصول في التعارض الأعم، ولكن رجحان المانع هنا قد يكون بإرادة صاحب الهم ومنه هم يوسف، وقد يكون من غيره ومنه هم هذه المرأة: كان همهما واحداً وهو البطش بالضرب أو ما في معناه، وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هي بهربه، وهاك الشواهد على القسمين.

حكى الله عن المشركين في سورتي الأنفال والتوبة أنهم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة:١٣] ﷺ من بلده مكة ولكنهم لم يفعلوا لأنهم خافوا أن يستجيب له غيرهم من العرب فيقوى أمره فرجحوا المانع بإرادتهم، وحكى عن المنافقين أنهم ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة:٧٤] إذ حاولوا أن يشردوا به بعيره في العقبة منصرفة من غزوة تبوك، فلم ينالوا مرادهم عجزاً منهم وحفظاً من ربه له ﷺ وفي معناه قوله تعالى له ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء:١١٣] ولكنه قدم هنا لولا فكان دليلا على أنهم فكروا في ذلك وما قاربوا. وقال في بعض المؤمنين ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران:١٢٢] أي تتركا المضي مع الرسول للقتال يوم أحد جبناً واتباعاً لعبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين، ولكن غلب عليهما داعي الإيمان فلم تفشلا وهو المعبر عنه بقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران:١٢٢] فرجحتا المانع من الفشل بالمقتضي للجهاد.

وفي المسند والصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود أن النبي ﷺ هم أن يأمر رجلاً يصلي بالناس ثم يأمر من يحرق على المتخلفين عن صلاة الجمعة بيوتهم - وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي «ثم آتي قوماً يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم» يعني ﷺ أنهم يستحقون هذا حتى كاد يفعله ولكنه امتنع ترجيحا للمانع على المقتضي.

إذا علم هذا فمن الجلي أنه لا يصح تفسير ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ بهذا المعنى الذي

أثبتناه بشواهد الكتاب والسنة إلا بما قررناه، وان ما قاله الجمهور باطل لمخالفته له، بل للغة القرآن وهدايته، وإنما خدعتهم به الروايات الباطلة، وبيانه من وجوه (أولها) أن الهم لا يكون إلا بفعل للهام والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه، وهذا التمكين هو الذي يثبت به دخول الزوجية الذي تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر في الفقه. (ثانيها) أن يوسف عليه السلام لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمي قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هماً لها، فإن نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئة من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضاً، (ثالثها) لو أن ذلك وقع لكان الواجب في التعبير عنه أن يقال «ولقد هم بها وهمت به» لأن الأول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقي، والهم الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه. (رابعها) أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضي له، فإذن لا يصح أن يقال إنها همت به مطلقاً حتى لو فرض جدلاً أنه كان قبولاً لطلبه ومواتاة له، إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه، وهو الذي يصح فيما حققناه من إرادة تأديبه بالضرب على أهون تقدير، فهذا هو المتبادر من نص اللغة ومن السياق وأقربه قوله عز وجل:

٢٥ - ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي فر يوسف من أمامها هارباً الى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها ترجيحاً للفرار على الدفاع الذي لا يعرف مداه، وتبعته تبغي إرجاعه حتى لا يفلت من يدها وهي لا تدري أين يذهب إذا هو خرج ولا ما يقول وما يفعل، وتكلف كل منهما أن يسبق الآخر، فادركته ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ إذ جذبته به من ورائه فانقد، قالوا إن القد خاص بقطع الشيء أو شقه طولاً والقط قطعه عرضاً ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب، وكان النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد واستمر هذا إلى زماننا، ولم يقل سيدهما لأن استرقاق يوسف غير شرعي وهذا كلام الله عز وجل لا كلام الرجل المسترق له،

ولعله كان قد تبناه بالفعل فلما دخل ورآهما في هذه الحالة المنكرة ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي شيئا يسوءك مهما يكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه تنكير ﴿سُوٓءًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي إلا سجن يعاقب به ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع يؤدبه ويلزمه الطاعة. وكان هذا القول مكراً وخداعاً لزوجها من وجوه:

(أحدها) إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءه ويسوءها.

(ثانيها) إنها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده كبيعه مثلاً.

(ثالثها) تهديد يوسف وإنذاره ما يعلم به أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها. فماذا قال يوسف في دفع التهمة الباطلة عنه وإسنادها إليها بالحق؟ ولولاه لأسبل عليها ذيل الستر؟

﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

آيات تحقيق زوجها في القضية

هذه الآيات الأربع في تحقيق القضية وعلم زوجها به براءة يوسف وثبوت خطيئتها وبدىء ببيان جوابه الصريح المنتظر بعد اتهامها إياه بالتلميح وهو:

٢٦ - ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ فامتنعت وفررت كما ترى. فصارت النازلة أو القضية باختلاف قوليهما موضوع بحث وتحقيق وتشاور بين زوجها وأهلها لم يبين لنا التنزيل تفصيله لأن المقصود من القصة فيه بيان نزاهة يوسف وفضائله للعبرة بها وإنما علمنا أن هذا وقع بالفعل، كما نعلم أنه كان متوقعاً بحكم العادة والعقل، من قوله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي أخبر عن مشاهدة أو علم

كالمشاهدة، وقيل حكم مستدلاً بما ذكر، وقد اختلفوا في هذا الشاهد كعادتهم في المبهمات التي يكثر فيها التخيل والاختراع هل كان صغيراً أو كبيراً أو حكيماً أو من خاصة الملك أو حيواناً حتى رووا عن مجاهد انه قال ليس بأنسي ولا جان هو خلق من خلق الله: مع قول الله إنه من أهلها، ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والضحاك انه كان صبياً في المهد يؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم» وابن جرير عن أبي هريرة قال «عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهد» وهذا موقوف والمرفوع ضعيف وقد اختاره ابن جرير وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا رد، وأما هذه الشهادة وفسرها بعضهم بالحكم فهي قوله ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي من قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في دعواها أنه أراد بها سوءاً فإنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقد قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفر فتبعته وجذبته تريد إرجاعه.

٢٧ - ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي من خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله أنه فر منها هارباً وهذه الشهادة ظاهرة على التفسير المختار الذي قررناه، ومشكلة على قول الجمهور كما صرح به بعض المدققين.

٢٨ - ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي إن هذا العمل ومحاولة التنصل منه بالاتهام من كيدكن المعهود منكن معشر النساء، فهو لم يخص الكيد بزوجه فيقال إنه أمر شاذ منها يجب التروي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحد أهلها، وهو لا يتهم في التحامل عليها وظلمها، بل هو سنة عامة فيهن في التفصي من خطيئاتهن، فقد أثبت خطيئتها مستدلاً عليها بالسنة العامة لهن في أمثالها ﴿إِنَّ

﴿كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ لا قبل للرجال به ولا يفطنون لحيلكن في دقائقه.

قال بعض المفسرين: ولربات القصور منهن القدح المعلى من ذلك لأنهن أكثر تفرغاً له من غيرهن، مع كثرة اختلاف الكيادات إليهن. وههنا يذكرون قوله تعالى ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء] يستدلون به على أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، ولا دلالة فيه وإن فرضنا إن حكاية قول هذا اقرار له، فالمقام مختلف وإنما كيد النسوان بعض كيد الشيطان، ثم التفت إليها وإلى يوسف قائلاً:

٢٩ - ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ الكيد الذي جرى لك ولا تتحدث به ولا تخف من تهديدها لك ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ أيتها المرأة وتوبي إلى الله تعالى ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ أي من جنس المجرمين مرتكبي الخطايا المتعمدين لها ولهذا غلب فيه جمع المذكر فلم يقل من الخاطئات. وقد استدل الكرخي بقول هذا الوزير الكبير لزوجه على أنه كان قليل الغيرة وسيأتي ما يؤيده، وزعم أبو حيان في البحر أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها، وأنها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لا يبقى. وهذا كلام غير مبني على علم صحيح، فأما سبب عدم نشوء الأسد في هذا القطر فهو خلوه من الغابات والأدغال التي يعيش فيها، وأما كونه إذا أدخل لا يبقى، فإن صح بالتجربة في الماضي فسببه عدم وجود المأوى له، وها نحن أولاء نرى الأسود والفهود والنمور تعيش وتتناسل في حديقة الحيوان بالجيزة، وإنما أشرنا إلى هذا للرد على زاعميه والإطالة فيه ليست من موضوع التفسير.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن

لَمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ
كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿٣٥﴾ ﴾

حادثة مكر النسوة بامرأة العزيز ومراودة يوسف

هذه الآيات الخمس في حادثة النسوة من كبار بيوتات مصر اللائي مكرن بامرأة العزيز لتجمعهن بهذا الشاب الذي فتنها جماله، وأذلها عفافه وكماله، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها، ودعته إلى نفسها فردها وأباها، خشية وطاعة لله، وحفظاً لأمانة السيد المحسن إليه، أن يخونه في أعز شيء لديه، لعله يصبو إليهن، ويجذبه من جمالهن الطارىء المفاجيء له، ما لم يجذبه من جمالها الذي ألفه قبل أن يبلغ أشده، وكان نظره إليها نظر الرقيق إلى سيدته، أو الولد إلى والدته، وقد جاءت في السورة بأبدع صورة من الإيجاز والبلاغة، وأعلى تعبير من الأدب والنزاهة، وهو:

٣٠ - ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ النسوة جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن لأن الفائدة في العبرة محصورة في أن عملهن عمل جماعة قليلة يعهد في العرف ائتمارهن واتفاقهن على الاشتراك في مثل هذا المكر المنكر في مدينة كبيرة كعاصمة مصر، التي بلغت منتهى فتن الحضارة، وما تقتضيه من التمتع بالشهوات والزينة، ولفظ النسوة مفرد مذكر فيجوز تذكير ضميره للفظه وتأنيثه لمعناه.

ومن غريب فتنة الروايات الباطلة أن يدعي بعضهم أن اللواتي أجبن دعوتها الآتية منهن كن أربعين امرأة، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات كلهن بجمع القلة، وكذا ما علم بقرينة الحال والمقال من أنهن من بيوتات كبار الدولة، فإن نساء البيوت الدنيا وكذا الوسطى لا يتسامين بعد الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك، إلى الوصول إليها بالمكر والحيلة، لمشاركتها في فتنتها بل نعمتها، أو سلب

عشيقها منها، ويؤيد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن، وكان من الطبيعي المعهود أن يعرفن نبأها معه، ويكون حديثهن الشاغل لهن في مجالسهن الخاصة، وكان خلاصته الوجيزة المؤدية لمرادهن منه ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هذا خبر يراد به لازمه وهو التعجب والإنكار الصوري من النواحي أو الجهات الأربع: (١) كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الأكبر في علو مركزها. (٢) كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراوِدة لرجل عن نفسه وشأن مثلها إن سخت بعفتها أن تكون مراوَدة عن نفسها لا مراوِدة لغيرها كما تقدم. (٣) أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها. (٤) أنها بعد أن افتضح أمرها وعرف به سيدها وزوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها باستغفار ربها، لا تزال مصرة على ذنبها، مستمرة على مراودتها، وهو ما أفاده قولهن ﴿تُرَٰوِدُ﴾ وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي قد اخترق حبه شغاف قلبها أي غلافه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك عليها أمرها، حتى انها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها، واللائق بمقامها الكتمان، ومكابرة الوجدان ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنا لنراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب. وهن ما قلن هذا إنكاراً للمنكر وكرهاً للرذيلة، ولا حباً في المعروف ونصراً للفضيلة، وإنما قلنه مكراً وحيلة، ليصل إليها فيحملها على دعوتهن، وإراءتهن بأعين أبصارهن، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن، فيعذرنها فيما عذلنها عليه، فهو مكر لا رأي.

٣١ - ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ وكان من المتوقع أن تسمعه لما اعتيد بين هذه البيوتات، من التواصل بالزيارات، واختلاف الخدم من كل منها إلى الآخر، وهن ما قلنه إلا لتسمعه فان لم يصل إليها عفواً، احتلن في إيصاله قصداً، فكان ما أردنه ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ أي دعتهن إلى الطعام في

دارها، ومكرت بهن كما مكرن بها، بأن أعدت وهيأت لهن ما يتكئن عليه إذا جلسن من الكراسي والأرائك وهو المعتاد في دور الكبراء قال تعالى في صفة الجنة ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ [الكهف:٣١] وكان ذلك في حجرة مائدة الطعام، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ليقطعن به ما يأكلن من لحم أو فاكهة، وروي عن بعض مفسري السلف تفسير المتكأ بالطعام الذي يتكأ عليه أي يعتمد عليه لأجل قطعه كالجامد والشديد القوام، دون الرخو كالموز الناضج من الفاكهة والحساء من الطعام، والاتكاء على الشيء هو التمكن بالجلوس عليه أو الاعتماد عليه باليد أو اليدين، قال في المصباح المنير: وتوكأ على عصاه اعتمد عليها واتكأ جلس متمكناً وفي التنزيل ﴿وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤﴾ [الزُّخرُف] أي يجلسون وقال ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي مجلساً يجلسن عليه. قال ابن الأثير: والعامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل في القعود معتمداً على أحد الشقين، وهو يستعمل في المعنيين جميعاً، يقال اتكأ إذا أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمداً عليه، وكل من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه وروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير تفسير المتكأ هنا بالأترج أو الأترنج[1] لأنه لا يقطع إلا بالاتكاء عليه، وفي السنة أنه ﷺ ما كان يأكل وهو متكيء ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ أي أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة أو مخدع في داخل حجرة الطعام التي كن فيها محجوباً عنهن، ولو كان في مكان خارج عنها لقالت ادخل عليهن، فعلم من هذا أنها تعمدت أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه عالمة بما يكون لهذه الفجاءة من تأثير الدهشة، وهو ما حكاه التنزيل عنهن من قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي أعظمنه ودهشن لذلك الحسن الرائع، والجمال البارع، وغبن عن شعورهن ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بدلاً من تقطيع ما

---

(١) الأترج بالجيم المشددة ويقال أترنج وترنج ثمرة من جنس الليمون الحامض كبير مستطيل بشكل بطيخ الشمام يسميه العوام الكباد (بتشديد الباء) حامضه في جوفه قليل وسائره يؤكل بعد إزالة قشرة سطحه اللاصقة بحجمه الذي يؤكل إذا نضج.

يأكلن، ذهولاً عما يعملن، بأن استمرت حركة السكاكين الإرادية بعد فقد الإرادة على ما كانت عليه قبل فقدها، ولكنها وقعت على أكف شمائلهن وقد سقط منها ما كان فيها من استرخائها بذهول تلك الدهشة فقطعتها أي جرحتها، ولولا استرخاؤها لأبانتها، والظاهر أن مضيفتهن تعمدت جعلها مشحوذة فوق المعهود في سكاكين الطعام مبالغة في مكرها بهن، لتقوم لها الحجة عليهن بما لا يستطعن إنكاره، واختلف المفسرون في هذا القطع هل كان إبانة انفصلت به الكف من المعصم أو الأصابع من الكف؟ أم قطع جرح أطلق فيه لفظ بدء الشيء على غايته من باب المبالغة؟ وهو ما يسميه علماء البيان بالمجاز المرسل؟ الأكثرون على الثاني وهو مستعمل الى اليوم بالإرث عن قدماء العرب فيمن يحاول قطع شيء فتصيب السكين يده فتجرحها يقول كنت أقطع اللحم أو الحبل (مثلا) فقطعت يدي، كأنه يقول كاد ما أردته من قطع اللحم يكون بيدي مما أخطأت، ولا يقال فيمن جرح عضواً منه أو من غيره كالطبيب قاصداً جرحه إنه قطعه إلا إذا بالغ فيه، يقال أراد أن يجرح رجله ليخرج منها شظية نشبت فيها فقطعها، يريد أنه بالغ فكاد يقطعها، وقد أشار الزمخشري إلى مثل هذا القيد في استعمال القطع بمعنى الجرح فقال «كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي» يريد فأخطأت فجرحتها حتى كدت أقطعها ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ [1] مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي قلن هذا تعجباً وتنزيها لله تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر وهو ما لم يعهد له في الناس مثل، إنه ليس بشراً مثلنا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي ما هذا إلا ملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الأبصار وتخلب الألباب (كما كان يصور لهم صناعهم الرسامون والنحاتون أرواح الملائكة والآلهة بالصور

---

(١) كلمة حاشا لله قرأت في السبع المتواترة بالألف (حَاشَا) وبدونها على ظاهر رسم المصحف الإمام وهي حرف تفيد معنى التنزيه والبراءة في باب الأستثناء يقال أخطأ القوم حاشا زيد وزيدت فيه اللام للخطاب كما تقدم في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

والتماثيل لتكريمها وعبادتها) وأحسن كلمة رويت في الآية عن مفسري السلف قول ابن زيد بن أسلم المدني: أعطتهن أترنجاً وعسلا فكن يجززن الترنج بالسكين ويأكلنه بالعسل، فلما قيل له: اخرج عليهن خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به حتى جعلن يجززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسبن إلا أنهن يجززن الأترنج قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ما هكذا يكون البشر ما هذا إلا ملك كريم. اهـ. ففسر قطع الأيدي بحزها والحز أقل ما يحدثه السكين كالفرض في الخشبة، وهنا يتساءل المتسائلون.. ماذا قالت لهن، وقد غلب مكرها مكرهن؟ وصار حالها وحالهن كما قال الشاعر:

أبصره عاذلي عليه ... ولم يكن قبلها رآه

فقال لي لو عشقت هذا ... ما لامك الناس في هواه

فظل من حيث ليس يدري ... يأمر بالعشق من نهاه

٣٢ - ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي حينئذ قالت لهن ما يعلم شرحه من قرينة الحال، لما جاء في التنزيل من إيجاز وإجمال: إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن، وما أكبرتن في أنفسكن، وما فعلتن بأيديكن، وما قلتن بألسنتكن، فذلكن هو الأمر البعيد الغاية الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في عذلي عليه، إذ قلتن من قبل ما قلتن، فالمشار إليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها، أو يوسف البعيد في حقيقته البديع في صورته عما تصورونه به، فما هو عبراني أو كنعاني مملوك، وخادم صعلوك، قد شغف مولاته الملكة لرقه حباً وغراماً، فهي تراوده عن نفسه ضلالاً منها وهياماً، بل هو أكبر من ذلك وأعظم، هو ملك روحاني، تجلى في شكل إنساني، أوتي من روعة الجمال ما خلب ألبابكن في الوهلة الأولى من ظهوره لكن، فما قولكن في أمري معه وافتتاني به، وإنما ترعرع في داري، وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه، ويقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وحركته وسكونه، وأخلو به في ليلي ونهاري، فأراه بشراً سوياً، إنسياً لا جنياً، وجسداً لا ملكاً روحانياً،

فأتراءى له في زينتي، وأعرض على نظره ما ظهر وما خفي من محاسني، فيعرض عنها احتقاراً، فأتصباه بكل ما أملك من كلام عذب يخلب اللب، ولين قول وخشوع صوت يرقق القلب، فلا يصبو إليَّ، وأمد عيني إلى محاسنه جامعة فيهما كل ما يكنه قلبي من صبابة وشوق وخلاعة، مع فتور جفن، وانكسار طرف، وطول ترنيق وتحديق، فلا يرفع إليَّ طرفاً، ولا يميل نحوي عطفاً، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجاليها، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها. أمثل هذا الملك القاهر يسمى عبداً طائعاً، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة، تأمر بل تشير فتطاع، وينكر عليها أن تراود فترد، ثم تريد إظهار سلطانها فتعجز! لقد انكشف القناع، فلا أمر لمن لا يطاع ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشؤا عليها، كأنه يطلب مزيد الكمال منها.

ههنا أقول: والله ما عجبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم وأن قالت له (هيت لك) فقال (أعوذ بالله) فكم قال هذا من ليس له مقامه في معرفته بالله ومراقبته لله، وقد روي أن رجلاً راود أعرابية في ليلة ليلاء، وقال: إنه لا يرانا غير كواكب هذه السماء، فقالت: وأين مكوكبها؟

وإنما عجبي بل إعجابي بيوسف عليه السلام أن نظره إلى الله أو نظر الله إليه لم يدع في قلبه البشري مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حباً، لتصبيها له قبل أن يخونها صبرها فتنفره بمصارحتها، وأن من أقوى غرائز البشر حب الإنسان لمن يعتقد أنه يحبه، وإن كان مشغول القلب عنه بحب من لا يحبه، كما قيل:

ونظـــرة المحبـــوب للمحـــب ... والله عـــن إنـــسان عـــين القلـــب

وأما الخالي فلا يكاد يسلم من تأثير التحبب في استمالته كما قالت علية بنت المهدي العباسي ﴿تحبب فان الحب داعية الحب﴾ فالحب أقوى غرائز البشر، وأكبر ما يفتن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وان من الحب لصادقاً وكاذباً، وإن من العشق لعذرياً عفيفاً، وشهوياً فاسقاً، وإن مفاسده في الحضارة لكبيرة، وأن فتنته

لعظيمة، وسنعقد له فصلاً في باب العبرة بالقصة في إجمال تفسير السورة ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به، أقسم لكن آكد الإيمان، ولتسمع ذلك منه الأذنان ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي الأذلة المقهورين، تعني أن زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن وهو المدبر له المتولي لأمره، ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله كوالده، وهذا أشد مما أنذرته أولاً إذ قالت لزوجها عند التقائهما به لدى الباب ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هناك أنذرته أحد العقابين: سجن غير مؤكد، أو عذاب أليم نكرة غير معرف، قد يكون ذلك السجن المطلق بأخف صوره وأقلها، والعذاب المنكر بأهون أنواعه وألطفها، فذاك بحبسه في حجرة من الدار، وهذا بلطمة يحتدم بها ما في خديه من الاحمرار، وهنا أنذرته الجمع بينهما، وأكدت السجن بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وفسرت العذاب بالصغار الذي تأباه الأنفس الكبيرة، واكتفت فيه بالنون الخفيفة[1] وهو أشق على مثل يوسف من العذاب الاليم بالأعمال الشاقة، لأنها أهون على كرام الناس من الهوان والصغار باحتقار النفس، وفعله صغر كتعب، وأما صغر كضخم فهو خاص بصغر الجسم، ومن الأول قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

وفي هذا التهديد من ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير على علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ما حقه أن يخيف يوسف من تنفيذ إرادتها، ويثبت عنده عدم غيرته عليها، كما هو شأن كثير من الوزراء المترفين، ولا سيما العاجزين عن إحصان أزواجهن، والمحرومين من نعمة الأولاد منهن، وماذا فعل يوسف وما قال وقد علم أن هذه المرأة الماكرة قد عيل صبرها، وهتكت سترها، وكاشفت نسوة كبار بلدها بما تسر وما تعلن من أمرها؟ ورأى أنهن تواطأن معها

---

(١) وكتبت في المصحف الإمام ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالألف كـ ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ على حكم الوقف لشبهها بالتنوين.

على كيدها، وراودنه عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو تواطؤ لا قبل لرجل به، إلا بمعونة ربه وحفظه.

٣٣ - ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ أي قال: أي ربي، الغالب على أمري، العالم بسري وجهري، إن الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش أحب إلى نفسي وآثر عندي على ما يدعوني إليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهن عن حبك، وبقربهن عن قربك، وبمغازلتهن عن مناجاتك، وإنما يفسر ويشرح هذا بما يعلم من سياق القرآن، ومن طباع الرجال والنسوان، ومن التاريخ العام، والسنن الاجتماعية والأخلاق والعادات، وسيرة الصالحين والأنبياء دون حاجة الى ما لا سند له ولا دليل عليه من الروايات ودسائس الإسرائيليات، ومنه أنه ليس في السجن إلا الاعتبار بأحكام الملوك وأعوانهم من الوزراء والقضاة على من يسخطون عليهم بحق أو بغير حق، مما يزيدني إيماناً بقضائك، وصبراً على بلائك، وشكراً لنعمائك، وعلماً بشئون خلقك، ويفتح لي باب الدعوة إلى معرفتك وتوحيدك، والاستعداد لإقامة الحق، ونصب ميزان العدل، فيما عسى أن تخولني من الأمر، إذا مكنت لي كما وعدتني في الارض.

هذا ما يتبادر إلى الفهم من توجيه التفضيل في الحب تدل عليه حالة يوسف وسابق قصته ولاحقها بغير تكلف ولا تحكم، كما هو دأبنا في كل ما نفسر به هذه القصة وغيرها، وهو يصدق في جعل اسم التفضيل هنا لا مفهوم له أو على غير بابه كما يقال، فليس المراد ان ما يدعونني اليه محبوب عندي و السجن أحب إلي منه، وإنما معناه ان هذين الأمرين إذا تعارضا وكان لا بد من أحدهما فالسجن آثر وأولى بالترجيح لأن ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهن، فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن، فهو أي اسم التفضيل من قبيل قول المحدثين في بعض

الأحاديث الضعيفة هو أصح ما في هذا الباب، يعنون أقوى ما فيه وإن كانت كلها غير صحيحة، بل هو كقوله الآتي ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

وقيل يجوز أن يكون المراد من التفضيل ترجيح الأحب بمقتضى الإيمان وحكم الشرع، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع، فإن الأنبياء والصلحاء كسائر البشر يحبون النساء ويشتهون الاستمتاع بهن، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع، وشره الاعتداء على نساء الناس، ولما قال النبي ﷺ للفقراء «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال «أرأيتم إذا وضعها في حرام كان عليه وزر؟ كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» رواه مسلم من حديث أبي ذر. وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله حيث لا ظل إلا ظله في موقف القيامة «ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب إلى نفسها فقال إني أخاف الله» وهو حديث متفق عليه. وذلك بأن للمرأة ذات المنصب سلطاناً على قلب الرجل فوق سلطان الوضيعة في طبقتها وإن كانت جميلة الصورة فيثقل على طبعه وتضعف إرادته أن يرد طلبها فكيف بها إذا جمعت بين سلطان الجمال وسلطان المنصب ثم ذلت له ودعته إلى نفسها؟

(فان قيل) إن المرأة إذا ابتذلت نفسها فبذلتها للرجل بذلاً، وتحوَّل دلُّها عليه مهانة وذلاً، فإنه يحتقرها، وتتحول رغبته فيها رغبة عنها[1] وكلما تمنعت عليه ازداد حباً لها وشوقاً إليها، كما قال الشاعر:

---

(١) قد جرى بحث علمي خلقي في هذه المسألة في محفل أدبي من أستاذي المدارس فقلت انني استغرب أن يهبط فساد الفطرة البشرية ببعض الفساق فيقودهن إلى مواخير البغاء كيف لا يقرفون من رؤية من فيها وإن تصور حالهن أو رؤية تبذلهن لحقيق بأن ينفر الطبع السليم من جنس النساء، فقال أستاذ خبير بحال هذه الطبقات صار بعد ذلك من كبار رجال وزارة المعارف: إن أفسد هؤلاء الفاسقين الأرذلين فطرة لا يكاد يغشى هذه المواخير إلا وهو سكران، لا يشعر بشيء يمتاز به الإنسان على الحيوان. وإنما أذكر أمثال هذه المسائل في تفسير القرآن الشريف لأنه هداية وعبرة لجميع المكلفين فيجب أن يكون للدعاة إلى هدايته علم بكل ما ابتلوا به من فساد في الجملة، وهذه السورة من سوره هي المبينة للقدوة العليا في موضوع افتتان الرجال بالنساء والنساء بالرجال.

منعت شيئاً فأكثرت الولوع به أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

(قلنا) نعم ان هذا مقتضى الطبع السليم كما أن رد ذات الجمال والمنصب من ضعف الرجل أمام المرأة، ولكن المراودة قلما تبلغ من هؤلاء حد الوقاحة في الصراحة فتكون منفرة، وقد علمت أنها احتيال ومراوغة لتحويل الإرادة، وأن لنساء الأكابر في الأمصار التي أفسدتها الحضارة كيداً فيها وخداعاً، وإن لأستاذهن الشيطان مسالك من إغوائهن والإغواء بهن يخر أقوى الرجال تجاهها صريعاً، ولكن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وعناية ربهم بهم تغلب غوايته ومكر النسوان، وقد لجأ يوسف عليه السلام إلى هذه العناية، إذ عرض له كيد بضع نسوة من ذوات الجمال والمنصب لا بضاعة لهن إلا أبضاعهن، فقال ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ يعني إن لم تحول عني ما ينصبنه لي من شراك الكيد، ويمددنه من شباك الصيد، لم أسلم من الصبوة إليهن، وهي الميل إلى موافقتهن على أهوائهن، يقال صبا يصبو صبواً وصبوة إذا مال إلى اللهو وما يطيب للنفس من اتباع الهوى، ومنه ريح الصبا وهي التي تهب على بلاد العرب من مشرق الشمس لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها، حتى أن تغزل شعرائهم بها ليضاهيء تغزلهم بعشيقاتهم رقة وصبابة، ولا سيما إذا اقترنا وامتزجا كقول بعضهم:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

وإياكما ذاك النسيم فإنه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه

﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيعملون السوء بجهالة وهي ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة، فإن من يعيش بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات المترفات مثلي لا مفر له من الجهل إلا بعصمتك وحفظك بما هو فوق الأسباب المعتادة، وهذا نص صريح منه عليه السلام بأنه ما صبا إليهن، ولا أحب أن يعيش معهن، وإنما بين مقتضى

الاستهداف لكيد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يديم له ما عوده في قوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

٣٤ - ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ما دعاه به وطلبه منه الذي دل عليه هذا الابتهال والالتجاء إليه وطوى ذكره إيجازاً ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم يصب إليهن، فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهن ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المجيب لمن أخلص له الدعاء، جامعاً بين مقامي الخوف والرجاء ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصدق إيمانهم، وما يصلح من أحوالهم، فعطف استجابة ربه له وصرف كيدهن عنه بالفاء الدالة على التعقيب وتعليلها بأنها مقتضى كمال صفتي السمع والعلم، دليل على أن ربه عز وجل لم يتخل عن عنايته بتربيته، أقصر زمن يهتم فيه بأمر نفسه ومجاهدته، ومؤيد لقوله تعالى في أول سياق هذه الفتنة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

٣٥ - ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بدا هذه من البداء (بالفتح) لا من البدو المطلق، أي ثم ظهر لهم من الرأى ما لم يكن ظاهراً من قبل، ومنه كلمة سيدنا علي البليغة (فما عدا مما بدا) أى فما عداك وصرفك عما كنت فيه مما بدا لك الآن وكان خفياً عنك قبله، ولذلك عطفت الجملة بثم التي تفيد الانتقال مما كانوا فيه إلى طور جديد بعد التشاور والتروي في الأمر، وضمير ﴿لَهُم﴾ يرجع إلى أهل دار العزيز وامرأته ومن يعنيه أمرهما كالشاهد الذي شهد عليها من أهلها، والمراد بالآيات ما شهدوه واختبروه من الدلائل على أن يوسف إنسان غير الأناسي التي عرفوها في عقيدته وإيمانه وأخلاقه من عفة ونزاهة واحتقار للشهوات والزينة والإتراف المتبع في قصور هذه الحضارة، ومن عناية ربه الواحد الأحد به كما يؤمن ويعتقد، فمن هذه الآيات أن تفتن سيدته في مراودته لم يُحدث أدنى تأثير في جذب خلسات نظره، ولا في خفقات قلبه، بل ظل معرضاً عنها متجاهلاً لها، حتى إذا ما

صارحته بكلمة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ اقشعر جلده، واستعاذ بربه، رب آبائه الذين يفتخر باتباع ملتهم، وعيرها بالخيانة لزوجها. (ومنها) أنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها وهي سيدته، وما منعه من ذلك إلا ما رأى من البرهان في دخيلة نفسه، مؤيداً لما يعتقده من صرف ربه السوء والفحشاء عنه. (ومنها) انها لما اتهمته بالتعدي عليها وأرادوا التحقيق في المسألة شهد شاهد من أهلها هو جدير بالدفاع عنها، بما تضمن الحكم عليها بأنها كاذبة في اتهامها إياه بإرادة السوء بها، وأنه صادق فيما ادعاه من مراودتها إياه عن نفسه. (ومنها) مسألة انتشار خبرها معه وخوض نساء المدينة في افتتانها به وإذلال نفسها ببذلها له مع إعراضه عنها. (ومنها) مسألة أمكر هؤلاء النسوة وأعمقهن كيداً معه. إذ حاولن رؤيته وتواطأن عن مراودته، ودهشتهن مما شاهدن من جماله، حتى قطعن أيديهن بدلاً مما في أيديهن وهن لا يشعرن. فجميع هذه الآيات تثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها من هؤلاء النسوة مثار فتنة للنساء لا تدرك غايتها، وأن الحكمة والصواب في أمرها هو تنفيذ رأيها الأول في سجنه-وإن كانت سيئة النية ماكرة فيه- لإخفاء ذكره، وكف ألسنة الناس عنها في أمره، فأقسموا ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أجل غير معين حتى يكونوا مطلقي الحرية في طول مكثه وقصره وإخراجه، ويروا ما يكون من تأثير السجن فيه وحديث الناس عنه. وهذا القرار يدل على أن هذه المرأة كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير تقوده بقرنيه كيف شاء هواها، وأنه كان فاقداً للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات. وقد أعجبني فيه قول الزمخشري على قلة ما أعجبني من أقوال المفسرين في هذه القصة التي شوهتها عليهم الروايات الإسرائيلية المخترعة والعناية بإعرابها. قال في تفسير ما رأوا من الآيات: وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب[1] وكان مطواعة لها، وجملاً

(١) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده، والذروة بالكسر والضم أعلى

ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعدته، وذلك لما أيست من طاعته، وطمعت في أن يذلله السجن ويسخره لها. اهـ.

وجملة القول في هذه الحادثة أن يوسف عليه السلام كان أكمل مثل للعفة والصيانة والأمانة من أولها إلى آخرها، وهي في سفر التكوين ناقصة ومخالفة لما هنا في دعوى المرأة، والله أعلم من مؤلف سفر التكوين المجهول بما كان وبما ينفع الناس(*).

الشيء والمراد هنا أعلى سنام البعير، والغارب ما بين العنق والسنام منه وهو الذي يلقى عليه الخطام وهو بالكسر حبل يوضع في عنقه ويثنى في خطمه أي إنفه ليقاد به بسهولة. وأصل هذا الفتل فيهما ان يجيء الرجل بالخطام فيخفيه عن البعير لئلا يمتنع من وضعه ويأخذ بفتل ذروته وغاربه فيلذ له ذلك حتى يأنس به فإذا تمكن منه وضع له الخطام وقاده به فانقاد.

* عبارة سفر التكوين في الحادثة من الإصحاح ٣٩:

وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي ٨ فأبى وقال لامرأة سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ما له قد دفعه إلى يدي ٩ ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطيء إلى الله ١٠ وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً انه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها١١ ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت ١٢ فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج ١٣ وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج ١٤ أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ١٥ وكان لما سمع اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب خرج إلى خارج ١٦ فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته ١٧ فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني ١٨ وكان لما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج ١٩ فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمي ٢٠ فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن ٢١ ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفاً وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ٢٢ فدفع رئيس بيت السجن إلى يد

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

سيرة يوسف عليه السلام في السجن

هذه الآيات الثلاث في إظهار معجزة النبوة، والتمهيد لدعوة الرسالة.

٣٦ - ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ هذا عطف على مفهوم ما قبله أي فسجنوه ودخل معه السجن بتقدير الله الخفي الذي يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق: فتيان مملوكان تبين فيما بعد أنهما من فتيان ملك مصر. روي عن ابن عباس ان أحدهما خازن طعامه والآخر ساقيه، فماذا كان من شأنه معهما؟ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراها في اليقظة الآن وهي أنني أعصر خمراً، أي عنباً ليكون خمراً لا ليشرب الآن، وقراءة ابن مسعود وأبي في الشواذ « أعصر عنبا» تفسير لا قرآن، وما كل العنب يعصر لأجل التخمير فما نقل من أن عرب غسان وعمان يسمون العنب خمراً فمحمول على هذا النوع المخصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختماره، دون ما يؤكل في الغالب تفكهاً لكبر حجمه واكتناز شحمه وقلة مائه، ولكل منهما أصناف ﴿وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ الطير جمع واحده طائر، وتأنيثه أكثر من تذكيره، وجمع الجمع طيور وأطيار ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ أي قال له كل واحد منهما نبئني بتأويل

يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ٢٣ ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما في يده لان الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه. اهـ.

ما رأيت، أي بتفسيره الذي يؤول إليه في الخارج إذا كان حقاً لا من أضغاث الأحلام، ويصح إعادة الضمير المفرد على الكثير كاسم الإشارة بمعنى المذكور أو ما ذكر، ومنه قول الراجز:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجسم توليع البهق

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عللوا سؤالهم إياه عن أمر يهمهم ويعنيهم دونه، برؤيتهم إياه من المحسنين بمقتضى غريزتهم الذين يريدون الخير والنفع للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة ولا هوى، وقيل من المحسنين لتأويل الرؤى، وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأيا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما وجَّه إليه وجوههما، وعلق به أملهما. وهذا من إيجاز القرآن الخاص به.

افترص يوسف عليه السلام ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله وإصغاءهما لقوله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤاهما فبدأ حديثه بما هو أهم عنده وهو دعوتهما وسائر من في السجن إلى توحيد الله عز وجل، فعلم من هذا أن وحي الرسالة جاءه بعد دخول السجن فحقق قوله ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ كما أن وحي الإلهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجب على ما سبق، وحكمة هذا من ناحيته عليه السلام ظاهرة بما بيناه من أن الله تعالى جعل له في كل محنة ظاهرة، منحة باطنة، وفي كل بداية محرقة، نهاية مشرقة، تحقيقاً لما فهمه أبوه من اجتباء ربه له الخ. وحكمته من ناحية دعوة الدين أن أقوى الناس وأقربهم استعداداً لفهمها والاهتداء بها: هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها هم المترفون والمتكبرون. بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه والثقة بقوله وهي إظهار ما منَّ الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب وأقربها إلى اقتناعهم ما يختص بمعيشتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتوجيه الرسالة من جوابهم، وهو:

٣٧ - ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ وهو ما لا تدرون من حيث لا تدرون، وإني وإياكم في هذا السجن لمحجوبون ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أي أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهي إليه بعد وصوله إليكما: أنبئكما بكل هذا من شأن هذا الطعام قبل أن يأتيكما. روي أن رجال الدولة كانوا يرسلون إلى المجرمين أو المتهمين طعاماً مسموماً يقتلونهم به وأن يوسف أراد هذا، وما قلته يشمل هذا إذا صح، وهو ما يفهم من تسمية إنبائهما به تأويلاً، فإن التأويل الإخبار بما يؤل إليه الشيء وهو فرع معرفته، ولذلك قال بعضهم إنه سماه تأويلا من باب المشاكلة لما سألاه عنه من تأويل رؤاهما، وقال بعضهم أن المراد لا تريان في النوم طعاماً يأتيكما إلا نبأتكما بتأويله، وهو بعيد. وفسر الزمخشري ومن قلده تأويله (ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه) اهـ وهو تكلف سرى إليه من مفهوم التأويل في اصطلاح علماء الكلام وأصول الفقه لا من صميم اللغة ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ أي ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي بوحي منه إلي، لا بكهانة ولا عرافة ولا تنجيم، ولا ما يشبههما من طرق صناعية أو تعليم بشري يلتبس به الحق بالباطل، ويشتبه الصواب بالخطأ، فهو آية له كقول عيسى لبني إسرائيل من بعده ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩]. ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ خالق السموات والأرض وما بينهما كما يجب له من التوحيد والتنزيه، أي تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان المنتحلة على كثرة أهلها ودعوتهم إليها، وليس المعنى أنه كان متبعاً لها ثم تركها، فقوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] أي بعد موته فلا يبعث، ليس معناه أنه كان سدى قبله، فترك الشيء يصدق بعدم ملابسته مطلقاً، وبالتحول عنه بعد التلبس به، ويفرق بينهما بقرينة الحال أو المقال أو كليهما كما هنا. والمتبادر أنه أراد بهؤلاء القوم الكنعانيين وغيرهم من سكان أرض الميعاد التي نشأ فيها، والمصريين الذين هو فيهم وبينهم، فانهم اتخذوا من دون الله آلهة

معروفة في التاريخ أعظمها الشمس واسمها عندهم (رع) ومنها فراعنتهم والنيل وعجلهم (أبيس) وإنما كان التوحيد خاصاً بحكمائهم وعلمائهم ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي وهم الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة فإن المصريين وإن كانوا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء الذي دعا إليه الأنبياء إلا أنه فشا فيهم تصوير هذا الإيمان بصور مبتدعة ومنها أن فراعنتهم يعودون إلى الحياة الأخرى بأجسادهم المحنطة ويعود لهم السلطان والحكم ولهذا كانوا يدفنون أو يضعون معهم جواهرهم وغيرها، ويبنون الأهرام لحفظ جثثهم وما معها، ولعله لهذا أكد الحكم بالكفر بها بإعادة الضمير ﴿هُمۡ﴾ ليبين أن إيمانهم بالآخرة على غير الوجه الذي جاءت به الرسل فهو غير صحيح.

٣٨ - ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص، وبين أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى بقوله ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقيناً فكانت يقيناً له ولهم ووجداناً بقوله ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي ما كان من شأننا معشر الأنبياء[1] ولا مما يقع منا ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ نتخذه رباً مدبراً أو إلهاً معبوداً معه لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة) فضلاً عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس) أو من الشمس والقمر، أو ما يتخذ لهذه الآلهة من التماثيل والصور ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته في خلقه ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإرسالنا إليهم ننشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته، ونبين لهم هدايته

(١) في سفر التكوين الذين يعدونه من التوراة أن عيسو بن إسحق البكر كان يعبد الأصنام وأن أباه كان يفضله في الحب على أخيه وتوأمه يعقوب الموحد لله، وأن يعقوب احتال على أبيهما إسحق حتى اعطاه بركة البكورية التي هي حق عيسو لأنه خرج من بطن أمه قبله، فتأمل الفرق بين هداية القرآن وهدايته!!!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ نعم الله عليهم، فهم يشركون به أرباباً وآلهة من خلقه، يذلون أنفسهم بعبادتهم، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم، ثم صرح لهما ببطلان ما هما عليه من الشرك ونبههم إلى برهان التوحيد فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠)﴾

الدعوة إلى التوحيد الخالص ببرهانه

٣٩ - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أضافهما إلى السجن بمعنى يا ساكني السجن أو بمعنى يا صاحبي في السجن كما قيل *يا سارق الليلة أهل الدار* أي سارقهم فيها ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ هذا استفهام تقرير بعد تحيير، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد، وكان المصريون المخاطبون به يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين في ذواتهم، وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونهم بها، وفي صفاتهم الحسية التي يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنصوبة في المعابد والهياكل، وفي الأعمال التي يسندونها إليهم بزعمهم، فهو يقول لصاحبيه ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام، وما يقتضيه بطبعه من التنازع والاختلاف في الأعمال، والتدبير المفسد للنظام، هو ﴿خَيۡرٌ﴾ لكما ولغيركما من الأفراد والأقوام، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع، وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ الواجب الوجود، الخالق لكل موجود ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة، وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والأرضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين

الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها، وسبب اختلاف مظاهرها، هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها؟ الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل: هو الله الواحد القهار، لا رب غيره ولا إله سواه، ولذلك رتب عليه قوله:

٤٠ - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي غير هذا الواحد القهار ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ من قبلكم أي وضعتموها لمسميات نحلتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أربابا وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الإله المستحق للعبادة، حتى يقال إنها خير أم هو خير ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي بتسميتها أربابا على أحد من رسله ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أيْ أيَّ نوع من أنواع البرهان والحجة فيقال إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبداً له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده، كاستلام الحجر الأسود عند الطواف بالكعبة المعظمة مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر كما ثبت في الحديث - فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي فتكون من أصول الإيمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان.

وأقول إنه لما قامت هذه الحجة على النصارى ببطلان ثالوثهم الذي اتبعوا فيه ثالوث قدماء المصريين والهنود ادعوا أن له أصلاً من الوحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم أو تلاميذه، وأنه بهذا لا ينافي التوحيد فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة، والذي حققه علماء الإفرنج المؤرخون تبعاً للمسلمين أنه لا أصل له من الوحي، وأن كلمات الآب والإبن وروح القدس لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائس الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت الجامعة لأكثر النصارى، والأحرار العقليون من نصارى الإفرنج يرفضونها كلهم وهم ملايين ولكن ليس لهم كنيسة جامعة، وإنما يقولون في المسيح ما قرره الإسلام فيه وأكثرهم لا يعلمون ذلك، ولو عرفوا حقيقة الإسلام لكانوا

كلهم مسلمين، ولكنهم سيعلمون ويسلمون اتباعاً، كما أسلموا فطرة وعقلاً.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم الحق في الربوبية، والعقائد والعبادات الدينية، إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

ثم بين أول أصل بنى عليها لأنه أول ما يجب أن يسأل عنه من عرفها فقال ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا، وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتوجهوا، حنفاء لله غير مشركين به مَلَكاً من الملائكة الروحانيين، ولا مَلِكاً من الملوك الحاكمين، ولا كاهناً من المتعبدين، ولا شمساً ولا قمراً، ولا نجماً ولا شجراً، ولا نهراً مقدساً كالكنج والنيل، ولا حيواناً كالعجل أبيس، فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء، وأن كل ما عداه خاضع لإرادته وسننه في أسباب المنافع والمضار، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام جنسه ومادة حياة شخصه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه] فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب، وإليه المصير للجزاء على الأعمال يوم الحساب ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين، الذي دعا إليه جميع رسل الله أقوامهم ومنهم آبائي: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حق العلم لاتباعهم أهواء آبائهم الوثنيين الذين اتخذوا لأنفسهم أرباباً متفرقة ليس لها من الربوبية أدنى نصيب.

ومن العجيب أن هذه الحقيقة التي بينها القرآن في مئات من الآيات البينات تتلى في السور الكثيرة بالأساليب البليغة، صار يجهلها كثير من الذين يدعون اتباع

القرآن، فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض ما يحبون من النفع فيدعونهم خاشعين راغبين من دون الله، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا إليه جميع الأمم، زاعمين أن هذه الدعوة انفرد بها إبراهيم والرسل من ذريته فقط كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والإفرنج، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير، فهم يزعمون أن البشر نشئوا على الأديان الوثنية حتى كان أول من دعاهم إلى التوحيد إبراهيم ﷺ من زهاء أربعة آلاف سنة، والقرآن حجة عليهم بتصريحه أن الله تعالى أرسل في جميع الأمم رسلاً دعوهم إلى التوحيد أولهم نوح عليه السلام، فإن قومه كانوا أول من عبد الصالحين الميتين واتخذوا لهم الصور والأصنام، وكان البشر قبلهم على الفطرة وتوحيد آدم عليه السلام[1].

(فإن قيل) إن يوسف عليه السلام لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معهما فيه إلى غير التوحيد من شرع آبائه فما سبب ذلك؟ (قلت) إن أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لنسخها ولا لتغييرها، وهي في الأصل سماوية وإنما طرأت الوثنية على توحيدهم لله تعالى وأحدثوا تقاليد خيالية في البعث، فهو قد دعاهم إلى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله وهو التوحيد والآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، وقد طرأ عليها عندهم ما أشرنا إليه آنفا في تفسير قوله ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني كفرهم بأن الجزاء يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الأجساد وبعثهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون، وعقائدهم في

---

(١) عند كتابة هذا جاءني الجزء ٨ : ٦ من مجلة الشبان المسلمين التي صدرت في شهر المحرم سنة ١٣٣٤ فإذا فيه مقالة عنوانها (الاسلام منذ ٨٠٠٠ سنة في وادي النيل) ذكر فيها كاتبها أن سكان مصر الأولين كانوا قبائل همجية على الفطرة وأن الوافدين اليها من غرب آسية (أي بلاد العرب) كانوا على شيء من المعارف الدينية وغيرها وهم الذين أدخلوها إلى هذه البلاد وأهمها التوحيد والبعث.

هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة وأشهرها أنهم كانوا يحنطون أجسادهم لأجل أن تعود إليها الحياة التي فارقتها، وكان ملوكهم يحفظون في أهرامهم وغيرها من قبورهم حليهم وحللهم ومتاعهم لأجل أن يتمتعوا بها في النشأة الأخرى حيث يعودون ملوكاً كما كانوا، فهذه أباطيل طرأت على العقائد الأصلية المنزلة، وتقاليدهم هذه منقوشة من مواضع من الأهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور، ومنها ما هو خاص بنعيم العوام ومنه أنهم يتشكلون بالصور التي يحبونها. وتشكل الأرواح في الصور هو الأصل العلمي المعقول لعقيدة البعث في هيكل أثيري يلبس جسداً كثيفاً كالجسد الدنيوي، كما روي عن الإمام مالك رحمه الله، ومنه ما صح في الحديث من تشكل أرواح الشهداء في صور طير خضر تسرح في الجنة. وانما يكون التشكل على أكمله في الجنة جعلنا الله من خير أهلها.

وأما الركن الثالث من دين الرسل وهو العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات فكان يوسف عليه السلام يكتفي منه بما كان خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد وفي السجن ثم في إدارته لأمور الملك، وكان يقرهم على سائر شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخذ أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم الإسرائيلية بقول الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ الخ وبعد أن أدى يوسف رسالة ربه عبر لصاحبيه رؤياهما بقوله:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

تأويله لمنامي صاحبي السجن ووصيته للناجي منهما

٤١ - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ﴿فَيَسْقِى

﴿رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ يعني بربه مالك رقبته وهو الملك لا ربوبية العبودية فملك مصر في عهد يوسف لم يدع الربوبية والألوهية كفرعون موسى وغيره، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الذي رأي إنه يحمل خبزاً تأكل الطير منه ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ أي الطير التي تأكل اللحوم كالحدأة، وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما وقد يكون من خواطرهما النومية وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف ويؤكدها قوله ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ فهذا نبأ زائد على تعبير رؤياهما ورد مورد الجواب عن سؤال كان يخطر ببالهما أو أسئلة في صفة ذلك التعبير وهل هو قطعي أم ظني يجوز غيره ومتى يكون؟ فهو يقول لهما إن الأمر الذي يهمكما أو يشكل عليكما وتستفتياني فيه قد قضي وبت فيه وانتهى حكمه. والاستفتاء في اللغة السؤال عن المشكل المجهول، والفتوى جوابه سواء أكان نبأ أم حكماً، وقد غلب في الاستعمال الشرعي في السؤال عن الأحكام الشرعية، ومن الشواهد على عمومه ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ وهي مشتقة من الفتوَّة الدالة على معنى القوة والمضاء والثقة.

قلت إن هذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على ما عبر به رؤياهما داخلة في قسم المكاشفة ونبأ الغيب مما علمه الله تعالى وجعله آية له ليثقوا بقوله وهم أولو علم وفن وسحر، ومعناها انه علم بوحي ربه أن الملك قد حكم في أمرهما بما قاله لا من باب تأويل الرؤيا على تقدير كون ما رأيا من النوع الصادق منها لا من أضغاث الأحلام (وسنبين الفرق بينهما في التفسير الإجمالي لكليات السورة إن شاء الله تعالى).

٤٢ - ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ وهو الذي أول له رؤياه بأنه يسقي ربه خمراً، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية، فإن كانت فتواه بعده عن وحي نبوي كما رجحنا لا تتمة لتأويلها فيجوز أن يكون التعبير عن نجاته بالظن لأن ما

علم من قضاء الملك بذلك يحتمل أن يعرض ما يحول دون تنفيذه، وقد بينا في الكلام على رؤيا يوسف وما فهمه أبوه منها من أمر مستقبله أن علم الأنبياء ببعض الأمور المستقبلة إجمالي الخ. وقال جمهور المفسرين أن الظن هنا بمعنى العلم وفي هذه الدعوى نظر وقد بينا تحقيق الحق في الفرق بين الظن والعلم لغة واصطلاحاً في موضع آخر فلا محل لإعادته هنا ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري عسى أن ينصفني ممن ظلموني ويخرجني من السجن، وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وانباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شرابه ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي أنسى الساقي تذكر ربه وهو أن يذكر يوسف عنده على حد ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣] ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ منسياً مظلوماً والفاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق، والجاري على نظام الأسباب، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريباً ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي تذكر، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج إلى حذف وتقدير. ووجهوه بأنه أضاف المصدر إليه لملابسته له، أو انه على تقدير: ذكر إخبار ربه، فحذف المضاف وهو كثير كما إن الإضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم.

وقيل إن المعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فعاقبه الله تعالى بإبقائه في السجن بضع سنين[1] وقالوا إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب أنه توسل إلى الملك لإخراجه ولم يتوكل على الله عز وجل، وجاؤا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه، لأنها تتضمن الطعن في نبي مرسل، ولكن قبلها على علاتها الجمهور كعادتهم وهو خلاف الظاهر من وجوه:

---

(١) استشهدت بهذا القول المشهور في تفسير ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ خطأ.

(الأول) عطف الإنساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكراً لله تعالى قبله، إلى أن قاله فلو كان قوله ذنباً عوقب عليه لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه -أي في تلك الحال- فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى بإطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده.

(الثاني) أن اللآئق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الأسباب والمسببات كما وقع بالفعل فإنه ما خرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملك بإخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي خبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فإذا كان قد وصاه بذلك ملاحظاً انه من سنن الله في عباده متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه، وعطف الإنساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية فلا تكون هي ذنباً ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب.

(الثالث) إذا قيل سلمنا أنه كان ذاكراً لربه عندما أوصى الساقي ما أوصاه به ولكنه نسيه عقب الوصية واتكل عليها وحدها (قلنا) إن زعمتم أنه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيماناً، ولا يدل عليها دليل، بل يبطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وكيد النساء.

وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له عز وجل وذكره فهذا النسيان القليل، لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الأنبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس.

(الرابع) جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ

عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ [الحجر] وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ [الأعراف] فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى.

(الخامس) أن النسيان ليس ذنبا يعاقب الله تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم النبيين ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام] يعني الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله.

(السادس) إنهم ما قالوا هذا إلا لأنهم رووا فيها حديثاً مرفوعاً على قلة جرأة الرواة على الأحاديث المرفوعة المسندة في التفسير وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً قال قال النبي ﷺ «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله» ونقول إن هذا الحديث باطل، قال الحافظ ابن كثير وهذا الحديث ضعيف جداً: سفيان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضاً. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما. وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم. اهـ.

وأقول أولاً إن ما قاله في هذين الراويين للحديث هو أهون ما قيل فيهما ومنه أنهما كانا يكذبان، وثانيا إنه يعني بقوله (ههنا) الطعن في نبي مرسل بأنه كان يبتغي الفرج من عند غير الله وهو الجدير بأن لا تحجبه الأسباب الظاهرة عن واضعها ومسخرها وخالقها عز وجل. ويعني بقوله (لوقبل المرسل من حيث هو) ما هو الصحيح عند علماء الأصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل، وسنتكلم على المراسيل في التفسير في الكلام الإجمالي عن روايات هذه السورة وأمثالها في الخلاصة الإجمالية لتفسيرها إن شاء الله تعالى، وما رواه الكلبي وغيره عن وهب ابن منبه وكعب الأحبار من خطاب الله تعالى وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على

الاستشفاع بآدمي مثله فهي من موضوعات الراوي والمروي عنهما جزاهم الله ما يستحقون فتبين بهذا أن التفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدباً.

وقد اختلف المفسرون في مدة لبث يوسف في السجن بناء على الاختلاف في تفسير البضع واختلاف الرواة. فالتحقيق أن البضع من ثلاث إلى تسع، وأكثر ما يطلق على السبع، وعليه الأكثرون في مدة سجن يوسف من أولها الى آخرها، وما قالوه من أن السبع كانت بعد وصيته للساقي وأنه لبث قبله« ا خمس سنين فلا دليل عليه.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف لها بالقول والفعل

كان ملك مصر في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس) كما يأتي في التفسير الإجمالي، وقد رأي رؤيا عجز رجال دولته من الوزراء والكهنة والعلماء عن تأويلها، فكان عجزهم سببا للجوء إلى يوسف عليه السلام واتصاله بالملك وتوليه منصب الوزير المفوض عنده كما بين في الآيات مبدأ وغاية، قال تعالى:

٤٣ - ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ هذا السياق عطف على سياق صاحبي السجن وما قالاه

في قص رؤاهما على يوسف ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أي رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية ماثلة أمامي كأني أراها الآن ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ جمع سمينة وكذا سمين كما يقال رجال ونساء كرام وحسان ﴿يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ أي سبع بقرات مهازيل في غاية الضعف والهزال، وهو جمع عجفاء سماعاً لا قياساً فإن جمع أفعل وفعلاء وزان فعل بالضم كحمر وخضر، وحسنه هنا مناسبته لسمان ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾ عطف على سبع بقرات وهي جمع سنبلة كقنفذة ما يخرجه الزرع كالقمح والشعير فيكون فيه الحب ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ عطف على ما قبله، واليابس من السنبل ما آن حصاده، واستغني عن إعادة سبع هنا بدلالة مقابلة في البقرات عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ يخاطب رجال دولته وأشراف قومه ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ ما معناها وما تدل عليه فيكون مآلا لها ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى فاللام فيها للبيان والتقوية، فعبرها وعبورها بمعنى تأويلها وهو الإخبار بمآلها الذي يقع بعد.

٤٤ – ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أي هي أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الأحلام أي الأحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم فلا ترمي إلى معنى مقصود، وأصل الأضغاث جمع ضغث بالكسر وهو الحزمة من النبات أو العيدان، والأحلام جمع حلم بضمتين ويسكن للتخفيف وهو ما يرى في النوم، يقال حلم كنصر واحتلم، ومنه بلوغ الحلم، والحلم قد يكون واضح المعنى كالأفكار التي تكون في اليقظة وقد يكون -وهو الأكثر- مشوشاً مضطرباً لا يفهم له معنى وهو الذي يشبه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب بينها، وهو ما تبادر إلى أفهامهم من نوعي البقر والسنابل ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يحتمل قولهم هذا انهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه الأحلام المختلطة المضطربة وإنما يعلمون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة،

ويحتمل نفي العلم بجنس الأحلام لأنها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى بعيد تدل عليه الصور المتخيلة في النوم وتنتهي إليه، كما ينكر أهل العلم المادي الآن أن يكون لشيء من هذه الرؤى والأحلام تأويل صحيح، ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها. وسنبين الحق في ذلك في الخلاصة الكلية لتفسير السورة كما تقدم.

٤٥ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي من صاحبي السجن وهو الساقي أحد أركان القصة ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي والحال انه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن وصية يوسف إياه بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك (وأصل ادكر اذتكر - افتعال من الذكر أبدلت تاؤه دالاً مهملة لقرب مخرجهما وأدغمت فيها الذال المعجمة، وهو الفصيح، وقريء في الشواذ بالذال المعجمة وهي لغة) ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي أخبركم به أو بمن عنده علم تأويله ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إليه أو إلى السجن فهو فيه، وروي عن ابن عباس أن السجن كان خارج البلد. وفي خطط المقريزي: قال القضاعي سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن فيه المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين، والآخر موسى، وقد بني على أثره مسجد يعرف بمسجد موسى الخ. وأمثال هذه الأخبار لا يوثق بها.

٤٦ - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي قال فأرسلوني إليه فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك، منادياً له باسمه وما ثبت عنده من لقبه ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ وهو الذي بلغ غاية الكمال بالصدق في الأقوال والأفعال وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام، شارحا له رؤيا الملك بنصها -وهو بسط في محله بعد إيجاز في محله- قائلاً ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وعلل هذا الاستفتاء بما يرجو أن يحقق ليوسف أمله بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بعلمه فقال ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أولي

الأمر، وأهل الحل والعقد، بما تلقيه إلي من التأويل والرأي ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مكانتك من العلم فينتفعون به، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك وما يجب أن يعملوا بعد العلم به، فلعل الأولى تعليل لرجوعه إليهم بإفتائه، ولعل الثانية تعليل لما يرجوه من علمهم بها، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه.

٤٧ - ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي قال يوسف مبيناً للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ما تدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي، وهذا ضرب من بلاغة الأسلوب والإيجاز، لا تجد له ضريباً في غير القرآن، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقي خطاب الآمر للمأمور الحاضر، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأباً مستمراً كما قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣] سبع سنين بلا انقطاع. قال الزمخشري ﴿تَزْرَعُونَ﴾ خبر في معنى الأمر كقوله تعالى ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ [الصف:١١] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ أي فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه أي ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه، الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع فإن الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان، والسنبلات السبع الخضر على ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلاً لزرع سنة.

٤٨ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي سبع سنين شداد في محلهن وجدبهن ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهلهن كل ما قدمتم لهم، وهو من إسنادهم إلى الزمان والدهر ما يقع فيه، ويكثر إسناد العسر والجوع إلى سني الجدب: يقال أكلت

لنا هذه السنة كل شيء ولم تبق لنا خفاً ولا حافراً، ولا سبداً ولا لبداً. أي لا شعراً ولا صوفاً. وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان، وللسنبلات اليابسات ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي تحرزون وتدخرون للبذر.

٤٩ - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر وهو السبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الإغاثة وأوسعها وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة: يقال غاثه يغوثه غوثاً وغواثاً (بالفتح) وأغاثه إغاثة إذا أعانه ونجاه، وغوث الرجل: قال «واغوثاه» واستغاث ربه استنصر وسأله الغوث، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر إذ يقال غاث الله البلاد غيثاً وغياثاً إذا أنزل فيها المطر، والأول أعم وهو المتبادر هنا ولا يقال أن الثاني لا يصح، لأن خصب مصر يكون بفيضان النيل لا بالمطر فإن فيضانه لا يكون إلا من المطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان، فاعتراض بعض المستشرقين من الإفرنج وزعمه أن الكلمة من الغيث وأنها غير جائزة جهل زينه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما شأنه أن يعصر من الأدهان التي يأتدمون بها ويستصبحون كالزيت من الزيتون والقرطم وغيره، والشيرج من السمسم وغير ذلك، والأشربة من القصب والنخيل والعنب. والمراد ان هذا العام عظيم الخصب والإقبال، يكون للناس فيه كل ما يبغون من النَّعمة والإتراف، والإنباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الأول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل، وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب كتزرعون وتحصنون، وقراءة الجمهور عطف على يغاث الناس، وفائدة القراءتين، بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه، وحاضر مخاطب بما يكون منه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

طلب الملك ليوسف وتمكثه في الإجابة لأجل التحقيق في مسألة النسوة

من المعلوم بالقرينة أن الرسول بلغ الملك وملأه ما قاله له يوسف عليه السلام وأنهم فهموا منه أن الخطب جلل، وان هذا الرجل ذو علم واسع، وتدبير لا يستغنى عنه فيما يصفه من حالي السعة والشدة، وقد طوي ذلك إيجازاً لأنه يعلم من قوله تعالى:

٥٠ - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ لأسمع كلامه بأذني، واختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسي ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وبلغه أمر الملك ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ قبل شخوصي إليه ووقوفي بين يديه ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي ما حقيقة أمرهن معي، فالبال الأمر الذي يهتم به ويبحث عنه، فهو يقول سله عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقته فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت عليها أو عقبها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل منه العفو ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وقد صرفه عني فلم يمسني منه سوء معهن، وربك لا يعلم ما علم ربي منه.

وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه في سؤاله (منها) دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي ما لقي من الشدائد أن يكون صبوراً حليماً، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لإبراهيم الذي وصفه الله بالأواه الحليم؟ وفي حديث أبي هريرة في المسند والصحيحين مرفوعاً «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» وفي لفظ لأحمد «لوكنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره

وكرمه وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب ... فهو مرسل لا يحتج به.

(ومنها) عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى تظهر براءته ونزاهته. (ومنها) وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها. (ومنها) مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر ما يجبن به. (ومنها) أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها لأن أمر شغفها به كان وجداناً قاهراً لها، وإنما اتهمها أولاً عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعاً عن نفسه، فهو لم يكن له بد منه.

٥١ - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الخطب الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره ومنه قول إبراهيم للملائكة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الحِجر] وقول موسى في قصة العجل ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه] وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتهما عن مورد السقيا ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص:٢٣] وهذه الجملة بيان لجواب سؤال مقدر دل عليه السياق كأمثاله. والمعنى أن الرسول بلغ الملك قول يوسف وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة، فجمعهن وسألهن: ما خطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه هل كان عن ميل منه إليكن، ومغازلة لكنَّ قبلها، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع المجرمين؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوءه لا كبير ولا صغير، ولا كثير ولا قليل، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول ﴿مِن﴾ عليها وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل

عن محضه، وهو تكرار من حصه إذا قطع منه حصة بعد حصة (بالكسر) وهي النصيب لكل شريك في شيء، مثل كبكب وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى، فهي تقول إن الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصة، بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فان كان عواذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي، فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات؟ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الأسمى لمن أكرم مثواه وأحسن إليه – على السكوت عنه الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان وقد أقر الخصم وارتفع النزاع.

٥٢ – ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي ذلك الإقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه، ليعلم الآن -إذ يبلغه عني- أني لم أخنه بالغيب في حال غيبته عني وغيبتي عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبته الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، وهذا تعليل آخر لإقرارها.

ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبريء نفسها من الكيد له بالسجن، وأن ذلك كان من هوى النفس الأمارة بالسوء، لان المراد منه تذليله لها، وحمله على طاعتها.

وفيها وجه آخر وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني

لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلى بينه وبيني، فاستعصم وامتنع، فبقي عرضه أي الزوج مصوناً، وشرفه محفوظاً، ولئن برأت يوسف من الإثم فما أبريء منه نفسي، فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وسيأتي أن من رحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الأمر السوء وهو أعلى الدرجات، ومنها حفظه إياها من طاعة الأمر بوازع منها، وهي دون ما قبلها، ومنها عدم تيسير عمل السوء لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حدٍّ (إن من العصمة ألا تجد).

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ولكن ذهب الجمهور اتباعاً للرويات الخادعة إلى أنهما حكاية عن يوسف عليه السلام يقول: ذلك الذي كان مني إذ امتنعت من إجابة الملك واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب الخ. وأنه صرح بعد ذلك بأنه لا يبريء نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يتبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير. ومن العجب أن ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال العماد ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحاً للقول الأول: وهذا هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة. اهـ. وشيخ الإسلام ابن تيمية من أعلم المحدثين بنقد الرويات فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند رويات القول الآخر.

وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الإنساني الأعلى للاقتداء به في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة، وأن امرأة العزيز التي اشتهرت في نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة في التاريخ القديم والحديث كان أكبر إثمها على زوجها، وكانت هي ذات مزايا في عشقها الذي كان اضطراريا لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهى الكمال في

الحسن والجمال، فمن مزاياها أنها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعية الجنسية للتسلي عنه بعد اليأس منه، وأنها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ تعني به همه بضربها، وأنها في خاتمة الأمر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي إيثارا للحق وإثباتا لبراءة المحق، فأية مزايا أظهر من هذه لمن ابتليت بمثل هذا العشق؟ وفي تاريخ الفردوسي أديب الفرس أنه صنف قصة غرامية في (زليخا ويوسف) صور فيها العفة بأجمل صورها، وزليخا (بالفتح) اسم امرأة العزيز في أشهر تواريخنا وقيل إن اسمها راعيل.

وسنفصل عبر القصة في التفسير الإجمالي للسورة إن شاء الله تعالى.

***

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

هذه الآية تتمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار وقيل من قول يوسف عليه السلام ويرده عطفه على إقرارها وعطف أمر الملك بالإتيان به من السجن عليه، وقد جعلت أول الجزء، لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء والأحزاب مراعى به مقادير الكلم العددي دون المعاني، وهذا لا يمنع من يجعل ورده من القرآن جزءاً في كل يوم ليختمه في كل شهر أن يزيد أو ينقص في القراءة آية أو أكثر ليقف عند ما يتم به سياق سابق أو معنى فيه، ثم يبدأ بعده بسياق آخر أو معنى مستقل منه في ورد اليوم الذي بعده.

تقدم أن قولها ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ يجوز أن يراد به يوسف عليه السلام لأن كلامها في جواب الملك عما سألها هي وسائر النسوة عن خطبهن في مراودته. ويجوز أن تعني به زوجها للعلم به من قرينة الحال وان لم يذكر، والأول أظهر وهذه الآية في معنى الاستدراك على ذلك النفي فهي تقول:

٥٣ - ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ في دعوى عدم خيانتي إياه بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الخيانة وما عرف أمره ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء بداعي الشهوات البدنية والأهواء الغضبية، ونزغات الوسوسة الشيطانية ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه، وكانت مما يسوءه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين، وعن ابن كثير ونافع قراءة (بالسوّ) بتشديد الواو على لغة من يقلب الهمزة واواً ويدغمها في الواو ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي إلا نفساً رحمها ربي رحمة خاصة فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف هذا هو المعنى المتبادر من سياق القصة، ويجوز في الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعاً بمعنى لكن رحمة ربي هي التي قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره أو تحول دونه، وأن تكون ﴿مَا﴾ زمانية، والمعنى أن من شأن النفس أن تكون أمارة بالسوء في عامة الأوقات إلا وقت رحمة ربي الذي يوفقها فيه لمراقبته والأعمال الصالحة التي ترضيه ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى ان يصرف بعض الأنفس عن الأمر بالسوء أو عن طاعتها فيه أو يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترف السوء ثم يتوب إليه منه.

وقد أخذ علماء النفس وصفاتها من آيات القرآن أن أنفس البشر على ثلاث درجات أدناها الأمارة بالسوء، وأعلاها النفس المطمئنة بذكر الله الراضية عنه المرضية عنده، وهي التي يخاطبها تعالى في آخر سورة الفجر بقوله ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾ الخ، وبينهما التي سماها في أول سورة القيامة بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم صاحبها على كل ذنب وتقصير في طاعة الله ومعرفته، ومن التقصير في طاعته التقصير في حقوق عباده الشرعية ولا سيما أولي القربى والجيران والمحتاجين إلى البر، وكذا الحقوق العامة للملة والأمة. وبعضهم

يجعل النفس الراضية والنفس المرضية قسمين من أقسام النفس المطمئنة، ولفقهاء الصوفية تفصيل لهذه الأنفس وتربيتها فيه علم يزيد المطلع عليه بصيرة في دينه وتربية نفسه ونفس غيره من ولد وتلميذ ومريد وفي معرفة ربه.

كان الفصل الأول من قصة يوسف عليه السلام في نشأته وما وقع بينه وبين إخوته وانتهى ببيعه بثمن بخس، والفصل الثاني في حياته الأولى في مصر وهو قسمان أحدهما في بيت عزيز مصر وثانيهما في السجن، وكانت هذه الأطوار كلها أطوار بؤس وشدائد، رباه الله تعالى بها أكمل تربية وجعله خير أسوة لأفراد الناس في عفته ونزاهته وصدقه وأمانته، وخير أهل لما بعدها من إدارة ملك مصر، وإتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما تنبأ أبوه من قبل.

الفصل الثالث من قصة يوسف

توليته حكومة مصر وما وقع لإخوته معه فيها

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

٥٤ - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة وظهور براءة يوسف فيه من كل سوء وهو ما اشترطه في قبول الدعوة أول مرة ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي أحضروه من السجن إلي وقد وفينا له بما اشترطه لمجيئه -أجعله خالصاً لنفسي لا يشاركني أحد فيه من وزير يدخل بيننا في إدارة الملك ولا حاجب يبلغه عني ويبلغني عنه- فأتوه به ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وسمع ما أجابه به ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي إنك في هذا الزمن لدى حضرتنا الملكية الخاصة ذو مكانة ثابتة ومنزلة عالية، وأمانة تامة موثوق بها، فأنت مفوض في إدارة ملكنا غير منازع في تصرفك ولا متهم في أمانتك، وفي الآية تنبيه إلى تأثير الكلام في إظهار معارف الإنسان وإرادته وأخلاقه وإقناع مخاطبه بما يريده منه.

فهم الملك استحقاقه لهذه الثقة من فحوى كلامه وما كان من أمانته في بيت وزيره العزيز على ماله وعرضه وحسن تصرفه في كل ذلك، ومن سيرته الحسنة في السجن، وما علم عنه فيه من علم وفهم، وتأويل الرؤيا بما يعبر عن معناها، ويرشد إلى ما يجب من العمل فيما تدل عليه من التدبير، ثم ما كان من حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة، فدلته جملة هذه الأعمال والأحوال والأخلاق على ما استحق به تلك المكانة والأمانة. وهذا يدل على أن ذلك الملك كان وافر العقل، محباً للعدل، بصيراً بمزايا الرجال، وهذه الأخيرة يقل في الملوك من يقدرها قدرها، ويعطيها حقها، فلا تصرفه عنها الأحوال العارضة ككون الرجل غريباً أو أجنبياً أو فقيراً أو مملوكاً أيضاً، وما قام ملك ولا سقط إلا بهم، وقد قال عمر إذ ظهر له خطؤه في تقدير رجل: رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال.

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان بينهما، وكذلك كان يوسف يكلم العزيز وامرأته من أول يوم وكذا كلم النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لرؤيته عندها وصاحبيه في السجن بالأولى، وذلك أن لغة يوسف كانت فيما يظهر لغة جده إبراهيم وأولاده وأحفاده وهي لغة حكام وطنه الكلدانيين وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمضرية والعبرانية والسريانية والفينيقية، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب أيضاً وهم الذين يسمونهم الرعاة (الهكسوس) وفي التواريخ العربية أن ملك مصر هذا كان يسمى الوليد بن الريان، ولولا هذا وذاك لكان المتبادر أن يوسف تعلم لغة مصر في هذه المدة الطويلة في مصر وكلمه ملكها بها، على أن العربية أصيلة وعريقة في مصر لغة وأدباً، وعرقاً ونسباً، وإنما كان الفراعنة وأشياعهم يعدون ملوك الرعاة العرب غرباء وأجانب لعصبية الملك، وقد أثبت المرحوم أحمد باشا كمال العالم الأثري أن الهيروغليفية ممزوجة بالعربية المضرية من قبلهم، ولو عرفت العربية القحطانية القديمة لجاز أن تكون هي أصلها، ويرى بعض علماء الغرب أن اللغة

العربية ما غلبت بعد الإسلام وثبتت إلا في بلاد الشعوب التي هي عربية الأصل أو للعرب فيها عرق واشج، ونسب راسخ.

٥٥ - ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هذا جواب سؤال تقديره ماذا قال يوسف للملك وقد سمع منه ما سمع ورأى من تأثير لقائه وكلامه في نفسه ما رأى؟ أي قال ولني خزائن أرضك كلها أكن المشرف عليها لأتمكن من تنفيذ ما أولته من رؤياك بنفسي فيكون منقذاً للبلاد والعباد من المجاعة، والمراد بالخزائن - وهي جمع خزينة- الأهراء التي تخزن فيها غلات الأرض أو ما يشمل كل مال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي شديد الحفظ لما يخزن فيها بحيث لا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه، راسخ العلم بطرق حفظه ووجوه تصريفه والانتفاع به، فهو قد طلب أهم ما تتوقف عليه إدارة الملك وسياسته وتنمية العمران وإقامة العدل فيه. فكان مضطراً إلى تزكية نفسه بالحق فيه فالجملة تعليل لما قبلها، ونحن نرى دهاة الإفرنج في كل بلاد يستولون أو يسيطرون عليها، يعنون بادىء ذي بدء بالاستيلاء على إدارة الأمور المالية فيها، لأنه يتوقف على تنظيمها تنظيم غيرها من أمور الدولة، وبهذا ترسخ أقدامهم فيها، فإذا لم يسرفوا في تحويل الثروة إلى أنفسهم وأبناء جلدتهم فضلهم أهل البلاد على أنفسهم أي على ملوكهم وحكامهم، أو يهديهم الله للعدل وحسن الإدارة فتعود الأمة إلى تفضيلهم بعد الثقة بهم. وأما الجاهلون الظالمون فإنهم يسرفون في إفساد النظام المالي واحتكار الثروة لأنفسهم حتى يمقتهم أبناء جلدتهم ويفضلوا الأجنبي عليهم، وما أضاع ملك المسلمين وغيرهم من الشرقيين في هذه القرون الأخيرة إلا الجهل، والتقصير في إدارة النظام المالي وتدبير الثروة وحفظها سواء في ذلك الدولة والأمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾

هذا بيان لسنة الله تعالى في تأسيس الرياسة الفضلى والحكومات المثلى في الأمم، ونيل الأفراد المناصب العالية فيها وإن كان أهلها غرباء عنها وافدين عليها. يقول تعالى:

٥٦ - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ومثل هذا التمكين الذي سبق بيان أسبابه ومقدماته مكنا ليوسف في أرض مصر وقد جيء به مملوكاً فأصبح مالكاً، فهذا التشبيه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ينبيء عن علم غزير هو موضع العبرة في القصة، وهو إعداده تعالى إياه بما تحلى به من الصبر واحتمال الشدائد والعفة والأمانة والصدق ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ يقال أصابه الشيء وأصابه الله به، أي نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى وغير ذلك من نعم الدنيا من نشاء من عبادنا بمقتضى سننا في الأسباب الكسبية، وموافقة الأحداث الكونية والاجتماعية ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم بشكر هذه الرحمة والنعم بل نأجرهم عليها في الدنيا بالزيادة والهناءة فيها، فإن نعم الدنيا مبذولة لكل من يطلبها من طرقها وأسبابها، ولكن المحسنين للتصرف فيها هم الذين لا يضيع عليهم شيء من أجرها في الدنيا كالذي يصيب المسيئين من المنغصات، وغوائل الإسراف والبطر والخيلاء، وإثارة أضغان المظلومين والحساد، والخوف على النعم منهم ومن غيرهم. وقلما يصيب المحسنين الشاكرين شيء من هذا. وما عسى أن يصيبهم منه يكون عليهم أخف، ويكونون عليه أصبر، ولا تنس هنا قوله تعالى في يوسف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله حكاية عن صاحبي السجن ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٥٧ - ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم مثبتة أن أجر الآخرة وهو نعيمها الذي يكون فيها للجامعين بين الإيمان والتقوى خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ومتاعه، ليكون المؤمنون

المتقون المحرومون من هذا النعيم راضين عن الله عز وجل، موقنين بأن ما أعده لهم في الآخرة يصغر ويتضاءل تجاهه كل ما في الدنيا من مال وجاه وزينة وشهوات.

ولا شك أن الجامعين بين السعادتين أكمل، وفضل الله عليهم أعظم، إذا هم أعطوا النعمة حقها من الشكر، قال فقراء المهاجرين رضي الله عنهم للنبي ﷺ يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال «ما ذاك؟» قالوا يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق قال ﷺ «أفلا اعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا بلى يا رسول الله قال «تسبحون وتكبرون وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة» رواه الشيخان عن أبي صالح عن أبي هريرة قال أبو صالح فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾».

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

جاء في كتب التاريخ وأقدمها سفر التكوين أن يوسف عليه السلام عُنِيَ أشد العناية بتنفيذ ما ذكره من التدبير في تأويل رؤيا الملك فبنى الأهراء العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها وأقربها إليها فلسطين من بلد الشام، واشتهر ما فعله يوسف عليه السلام في مصر وما فيها من الخير وحسن التصرف في بيع الغلال، أمر يعقوب عليه السلام أولاده بأن يرحلوا إلى مصر

ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشتروا به قمحاً لأن المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم، والمقصود من العبرة الدينية والأدبية في هذه الأخبار هو ما وقع بين يوسف وإخوته في مصر فاقتصر عليه في التنزيل وهو:

٥٨ - ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي جاءوا مصر يمتارون ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ لأن أمر الميرة وشراء الغلال بيده ورهن أمره ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ إذ دخلوا بلا تردد ولا طول تأمل كما يفهم من العطف بالفاء إذ كان عددهم وشكلهم وزيهم محفوظاً في خياله لنشوئه بينهم، وما قاساه منهم في آخر عهده بهم وكان في سن السادسة عشرة على رواية سفر التكوين وقد استكثرناها، ويجوز أن يكون هنالك سبب آخر لسرعة هذه المعرفة كأن يكون عمال يوسف وعبيده لا يدخلون عليه إلا من عرفوا أمرهم وعرضوهم عليه ونالوا إذنه بإدخالهم ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا إذ دخلوا عليه منكرين له لتغير شكله بالدخول في سن الكهولة، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته وما كان من حاجتهم كغيرهم لبره وعطفه، وكل ذلك مما يحول دون إطالة النظر إليه والتثبت من معارف وجهه، وكانوا يظنون أنه هلك أو طوحت به طوائح الزمن بالانتقال من سيد إلى آخر، فلو فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لعدوها مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض عادة، ولم يخطر ببالهم إن أخاهم وصل إلى هذه العظمة.

٥٩ - ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة. اهـ من الكشاف.

قال الفيومي في المصباح المنير: جهاز السفر أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة بالفتح وبه قرأ السبعة (وذكر الآية) والكسر لغة قليلة، وجهاز العروس والميت باللغتين أيضاً يقال جهزهما أهلهما بالتثقيل، وجهزت المسافر بالتثقيل أيضاً هيأت له

جهازه وما يحتاج إليه في قطع المسافة. اهـ. فتجهيز يوسف إياهم بالجهاز اللائق بهم الكافي لهم هو غير الميرة التي جاؤا لامتيارها أي الطعام الذي جاؤا لشرائه، وهو يدل على أنهم أخذوا الميرة أيضاً فهو من إيجاز القرآن الدقيق، وجعله الزمخشري شاملاً له بالمعنى لاستلزامه إياه. وقد نقل البيضاوي عبارته ثم قال والجهاز ما يعد من الأمتعة للنقلة كعدة السفر وما يحمل من بلد إلى آخر وما تزف به المرأة إلى زوجها. اهـ. فجعل الميرة وغيرها من البضائع داخلة في معنى الجهاز وليس كذلك في أصل اللغة. ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ يريد شقيقه بنيامين، وفي سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متنكراً لهم إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاؤا ليروا عورة البلاد فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم (٤٢ : ١٣ فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخاً، نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان، وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود ١٤ فقال لهم يوسف ذلك ما كلمتكم به قائلاً: جواسيس أنتم ١٥ بهذا تمتحنون، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا) الخ (٢٥ ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله، وأن يعطوا زاداً للطريق، ففعل لهم هكذا) اهـ. وهو بمعنى ما قلنا ويدل عليه قوله ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمه وأجعله وافياً كافياً ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي وأنا على هذا خير المضيفين للضيوف، وكان قد أحسن ضيافتهم ومن تمامها تجهيزهم بالزاد الكافي لهم مدة سفرهم، والميرة لا تقتضي هذا ولا تستلزمه، يقال أنزلت الضيف نزلاً وخير منزل بضم الميم وفتح الزاي فهو نزيل -فعيل بمعنى مفعول- والنزل بضمتين طعام النزيل الذي يهيأ له، وهو مستعمل في التنزيل، واستدل بقوله هذا على ضعف رواية اتهامه إياهم بالتجسس على كون هذه التهمة لا تليق بمن دون الصديق النبي وهو يعلم بطلانها إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة.

٦٠ - ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ فإذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن

معكم منع جنس الكيل أن يكال لكم في حضرتي أو ملكي فضلاً عن إيفائه وإكماله الذي كان لكم بأمري ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ بكسر النون الدالة على ياء المتكلم المحذوفة، وهو يجوز أن يكون نفياً معطوفاً على ما قبله وأن يكون نهياً عن القرب منه فضلاً عن إنزاله إياهم في ضيافته خير ضيافة لا توجد عند غيره، وناهيك بها بين منزلته من الملك والحكم، ومنزلتهم فيمن لا يحصى من الجائعين المتارين من البعد.

٦١ - ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي سنبذل جهدنا في مراوغة أبيه وروده وتحويله عن إرادته في إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك حتى نقنعه بإرساله معنا كما تحب ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك قطعاً وعداً مؤكداً لا ننساه ولا نتوانى فيه.

٦٢ - ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ أي غلمانه الكيالين، وهذه قراءة حمزة والكسائي وحفص، وهو جمع كثرة لفتى، وقرأ الباقون (لفتيته) وهو جمع قلة فهما كاخوة وإخوان ولا وجه للتفاضل بينهما ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ التي جاؤا بها لشراء الطعام ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾ أي أوعيتهم وهي جمع رحل بالفتح يطلق على كل ما يعد للرحيل (السفر) من وعاء للمتاع ومركب وحلس للبعير ورسن ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ أي رجاء أن يعرفوا لنا حق إعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجاناً بغير ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه فإنهم إنما يفتحونها هنالك ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إلينا طمعا في برنا وإن كانوا غير محتاجين إلى امتيار آخر لضرورة القوت. ويجوز أن يكون رجاء الرجوع منوطاً بمعرفة البضاعة من غير تقدير معرفة حق ردها إليهم وما فيه من المنة والكرم، وهو أن يعتقدوا أن فتيان يوسف نسوها أووضعوها في رحالهم خطأ؟ وهم لا يستحلون أكلها بالباطل فيرجعون لإعادتها وإيصالها إلى أهلها.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

٦٣ - ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ أي صدر حكم العزيز ولي الأمر بمنع الكيل لنا في المستقبل، وأخبروه بما قاله لهم ورتبوا عليه قولهم ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا ﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ أي نتمكن من أخذ ما نطلب من الطعام بالكيل المعلوم بأن نرفع المانع من الكيل ونكتال من الطعام بقدر عددنا، وقرأ حمزة والكسائي (يكتل) بالياء يعنون أخاهم بنيامين أي يكتل لنفسه كما يكتال كل منا لنفسه فان الكيل لنا مشروط بإرساله ورؤية العزيز له، تقول كلت له الطعام إذا أعطيته واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك يقال كال الدافع، واكتال الآخذ، قاله في المصباح ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ في ذهابه وإيابه فلا يناله مكروه نخافه، كأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لا يزال يعتقد أنهم يحسدونه كما كانوا يحسدون يوسف معه فقالوا له مثل ما قالوا لما طلبوا إرسال يوسف معهم يرتع ويلعب، فماذا قال هو لهم؟

٦٤ - ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ إذ قلتم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ ثم خنتم وكذبتم فأضعتم يوسف فالحالة واحدة ووعدكم بحفظه لا يوثق به «ما أشبه الليلة بالبارحة» ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ فمن لم يحفظه فلا حافظ له، قرأ الجمهور (حفظا) على التمييز وحمزة والكسائي (حافظا) وهو يحتمل التمييز والحال، والكلمة كتبت في المصحف الإمام بدون ألف ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليَّ الابتلاء بفقده وفقد أخيه يوسف معاً ،

فرحمته أوسع وأعظم، وفي قوله هذا لين وميل إلى ارساله لشدة الحاجة ولكنه غير صريح.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

٦٥ - ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي فتحوا رحالهم من غرائر وغيرها وجدوا فيها ما كانوا أعطوه من بضاعة ونقد ثمناً للطعام كما توقع يوسف إذ أمر فتيانه بوضعها في رحالهم ولم يعلموا بذلك من قبل ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ استفهام في سياق استئناف بياني، يعنون أي إكرام نطلب وراء هذا الذي فعل معنا عزيز مصر، أو نفي للمبالغة فيما حدثوه به من كرمه وحسن ضيافته، أي ما نبغي ولا نسرف فيما حدثناك عن كرم هذا الرجل، ثم استدلوا على هذا بقولهم مستأنفاً أيضاً ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بعينها على حقارتها لم يأخذ العزيز شيئاً منها، وكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته فهو هبة منه لنا أو صدقة علينا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ هذا عطف على محذوف تدل عليه القرينة، أي فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه من الميرة من مصر مجاناً ونحفظ أخانا بعنايتنا كلنا به مع عدم المخاوف التي تخشى أن تغلبنا عليه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي حمل جمل يكال لأخينا ويفهم منه ان يوسف ما كان يعطي أحداً أكثر من حمل بعير حتى لا يسرف الناس في الطعام، وقد أشار في تعبير رؤيا الملك إلى ما يجب من الاقتصاد ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي إن حمل البعير كيل سهل لا عسر فيه على عزيز مصر الجواد المحسن، أو قليل لا يكثر على سخائه ولا يشق عليه وإن كان يعلم أن كل ما نأخذه لبيت واحد، فالمشار إليه حمل البعير، والكيل بمعنى المكيل، واليسير له معنيان

أحدهما السهل وهو ضد العسير ومنه قوله تعالى ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدَّثر] وقوله ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ [النساء] والثاني القليل من كل شيء حتى الزمن ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤﴾ [الأحزاب] وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي: أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا، يعنون ما يكال لهم فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد. اهـ. وهذا بعيد ولو كان من قوله لعطف عليه ما بعده ولكنه جاء مفصولاً مستأنفاً على الأصل في جواب سؤال مقدر كأمثاله وهو:

٦٦ - ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي حتى تعطوني عهداً موثقاً بالقسم بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ جواب القسم أي لترجعن به إلي على كل حال تعرض لكم ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا في حال واحدة وهي أن تغلبوا على أمركم بعدو أو بلاء يحيط بكم فتهلكوا دونه فلا تستطيعوا الإتيان به مجتمعين ولا متفرقين أو لا يسلم منكم أحد ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي أعطوه العهد الموثق الذي اشترطه عليهم ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أشهد الله تعالى على ما قاله واشترطه وما أجابوه به، يعني أنه سبحانه رقيب عليه وعليهم، وأمرهم موكول إليه فهو الكفيل الذي يوفق للوفاء بالعهد، والصدق بالوعد، فمقول القول خبر في اللفظ إنشاء في المعنى.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾

٦٧ - ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ﴾ مصر مجتمعين ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ كهيئتكم هذه بناء على أنه كان لمصر عدة أبواب لكبرها وكثرة طرقها، وقيل إنه أراد بالأبواب الطرق، والراجح عندي أنه أراد الأبواب التي يدخل الناس منها على العزيز في قصره أو الوسائل الموصلة إليه، فالأبواب تطلق على المداخل الحسية والمعنوية ومنه ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الأنعام:٤٤] ومنه أبواب جهنم وهي أمهات أجناس الأباطيل والمعاصي التي هي سبب دخولها، وكذا أبواب العلم والكتب ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ بحيث لا يراكم من هنالك مجتمعين فيحسدكم الحاسدون، ويكيد لك الظانون ظن السوء، فإذا وقع بكم مكروه بحسدهم وكيدهم أو بسبب آخر خشيت أن يصيبكم كلكم فيحاط بكم ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ وما أدفع عنكم بوصيتي هذه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مما قضاه الله وقدره في علمه وسنن خلقه ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ قل أو كثر، فما قضاه وحكم به لا بد من وقوعه ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في تدبير العالم ونظام الأسباب والمسببات إلا لله وحده ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ دون غيره ودون علمي ووصيتي، وحولي وقوتي ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ كلهم لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم، بل يجب على كل عاقل يؤمن به أن يتخذ لكل أمر ما يقدر عليه من الأسباب، وأن يوصي بها بعضهم بعضاً، وأن يكون اتكالهم في النجاح وقضاء الحاج عليه، فإن من الأسباب ما يخفى عليهم، وما لا تصل إليه أيديهم.

٦٨ - ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ وهو الأبواب المتفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي﴾ يمنع أو يدفع دخولهم أو أمره لهم وامتثالهم له ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي أدنى شيء من المكروه الذي من شأنه أن يحول دون رجوعهم ببنيامين، وقد أخذ عليهم الموثق بأن يأتوه به إلا إذا أحيط بهم فلم يبق منهم أحد، وإنما يقع هذا في العادة

الغالبة إذا كانوا مجتمعين ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ هذا استثناء منقطع بالاتفاق والمعنى أن يعقوب كان يعلم أن الحذر لا يدفع القدر، ولكن كانت هنالك حاجة تعتلج في نفسه، قضت الحكمة ألا يكاشف بها أحداً منهم، هي وراء ما يخطر بالبال من أسباب الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة به قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ خاص به وبأمثاله الأنبياء ﴿لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ لأجل ما أعطيناه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة والإلهام وذلك عندهم فوق صحة الفكر وسلامة العقل، فهو يعلم به أن يوسف حي سيكون له شأن، وأن الإنسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له كل ما يصل إليه علمه من أسبابه حتى ما كان منها احتياطياً ثم يتوكل على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما تختص به رسلنا من علمنا اللدني، فهم يتكلون على ما يظنون أو يتوهمون من الأسباب، والواجب الجمع بين الأسباب الصحيحة وبين الاتكال على الله، وهو ما فعله يعقوب عليه السلام.

هذا ما يدل عليه ظاهر الآيتين من تفسيرهما الظاهر المتبادر من لفظهما، ولتلك الحاجة التي كانت في نفس يعقوب تفسير باطن لا يفهمه إلا من عرضها على أول القصة وآخرها، وهو ما فهم يعقوب من رؤيا يوسف عليهما السلام من أن ربه يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به، وما جزم به من تكذيب إخوته في قولهم أكله الذئب، فقد كان يعلم أن يوسف حي باق وينتظر تحقيق رؤياه له ولآل يعقوب، وقد قلنا إن علم يعقوب بهذا كان علماً قطعياً ولكنه مجمل مبهم لا يتناول مكانه بعد أخذ السيارة له ولا ما فعل الله به، فلما قص عليه أولاده ما كان من ضيافتهم وإكرامهم في قصر ملك مصر ووزيره العزيز المفوض، ومطالبته إياهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، وأكد هذا الطلب وألح فيه وأنذرهم الحرمان من الكيل لهم إن لم يأتوه به، ترجح عنده أن هذا العزيز العطوف الرؤف المحسن المضيف لأولاده دون الوفود التي تفد عليه من مصر وغيرها لطلب الرزق هو يوسف بعينه، ولم يكن

له أن يجزم بذلك عقلاً، ولم يخبره الله به وحياً، لأن كل شيء عنده تعالى بقدر، ولكل قدر أجل، فلقن يعقوب أبناءه وصيته رجاء أن تنكشف بها الحقيقة أو تزداد قوة إلى أن يكشفها الله تعالى الكشف الأخير بتأويل رؤيا يوسف التام.

قال يا بني لا تدخلوا على هذا الملك الكريم أو الوزير العزيز من باب واحد من أبواب الوصول إليه، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة، وأراد بذلك أن يروا بأعينهم ما يكون من تأثير كل طائفة منهم في نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركة عينيه ولمعانهما عند رؤية شقيقه فيمن يدخل معهم، إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم كوكبة واحدة، وقد أبهم أمر الوصية عليهم ولم يشر إلى سببها، وانتظر أن يخبروه بما سيقع لهم بعد وقوعه.

ويؤيد هذا قوله تعالى بعدما تقدم ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فعلم منه أن المراد من الدخول الأول دخولهم عليه لا على مصر، ثم يؤكده أنه لم يصدقهم في قولهم ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ وقال لهم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ثم قوله ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ثم قوله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ الخ ثم انكشاف الأمر كله بما تمت به القصة.

هذا ما تبادر إلى فهمي أنه الحق الموافق للسياق والجمع بين أول القصة وآخرها وفهمها بنظر العقل المستقل في الحكم، بعد أن توجهت إلى الله أن يلهمني الصواب في تلك الحاجة في نفس يعقوب، كما أتوجه إليه وأدعوه دائماً في الأسحار وفي غيرها أن يوفقني في تفسير كتابه لما يحبه ويرضاه من الحق ونفع الخلق.

والمشهور عند الخواص والعوام من حاجة يعقوب التي كانت في نفسه أنه كان يخاف على أولاده إصابة العين وهو أول ما قرأته في تفسير الجلالين ثم رأيته في الدر المنثور مروياً عن أشهر علماء التفسير المأثور من الصحابة والتابعين كابن عباس ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد وقتادة والضحاك. ولكن روي عن إبراهيم النخعي في ذلك أن يعقوب أحب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة. وهذا الذي قارب

الصواب ولم يقرطس في هدفه فزعم أنه كان يعتقد أن يوسف ملك مصر، ولو صح هذا لما قال بعده ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.

فأما الخوف من العين ففيه أنه مخالف للسياق القريب الدال على الحرص على سلامة بنيامين والاحتياط للإتيان به، فإن الخوف عليهم من العين إذا دخلوا من باب واحد يعني به الجماعة دون الأفراد، ولا يظهر فيه شيء يخص بنيامين، وهم قد دخلوا مصر أول مرة من باب واحد فلم تصبهم العين، ولو صح ما في سفر التكوين من اتهام يوسف إياهم بالتجسس لجاز أن يقال إن رؤيتهم مجتمعين هو الذي أوقع الشبهة عليهم، وهم إنما اجتمعوا عند يوسف لا في باب من أبواب مصر.

وحوادث الإصابة بالعين عند المصدقين لها قليلة وأكثرها وهمية ولم يرو عنهم أنها بلغت أن يقتل بها جماعة من الناس أشداء كأخوة يوسف، وهم فريقان أحدهما يرى أنها تقع من تأثير بعض الأنفس الشريرة الجنود فيما تتوجه إليه توجها قوياً، والآخر يسلكها في خوارق العادات أو الحوادث المجهولة السحرية، والمؤمن بالله من كل منهما لا يقيم لتأثيرها وزناً، بل منهم من يقاوم تأثيرها بعد وقوعه بالتوجه إلى الله والدعاء والرقية، فإن تأثير الإيمان والتوجه إلى الله تعالى ودعائه وذكره والرقية بما يعتقد تأثيره قد يكون أقوى من تأثير النفس الشريرة ومنها العين كما بيناه في موضعه، ونظرية التأثير النفسي ومنه التنويم المغناطيسي مبنية على تأثير القوي من الأنفس في الضعيف، ولقد رأيت في إستنبول رجلاً نوم امرأة تنويماً مغناطيسياً فقلت له إن استطعت أن تنومني فلك حكمك فيَّ أو ما شئت من الدراهم، فاعترف بعجزه وعلله بأن نفسي أقوى من نفسه.

وقد صح في وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب في الحديث الصحيح أنهم «الذين لا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فالرقية تنافي التوكل لأنها سبب وهمي ضعيف، ولكن الأخذ بالأسباب القوية المطردة الثابتة بالتجارب المنتظمة في سنن

الله تعالى لا ينافي التوكل، بل تركها هو الذي ينافي التوكل كما قررناه في موضعه من هذا التفسير وغيره وقد صرح يعقوب عليه السلام في هذا المقام بتوكله على الله وحده، وهو دليل على أن ما قصده بتوصيته لأولاده لا ينافي التوكل ومنه الخوف من العين، وفي الصحيحين وغيرهما أن «العين حق» والإذن أو الأمر بالاسترقاء من العين، وسنحقق المسألة في خلاصة تفسير السورة إن شاء الله تعالى.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا
نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم
مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤)
قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ
قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ
(٧٦) ﴾

٦٩ - ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم البلد أو باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي ضم إليه أخاه الشقيق وهو بنيامين من دونهم، وهذا ما كان يتوقع يعقوب أو أكثر مما كان يتوقع من حدب عليه يظهر أثره في وجهه أو عناية يختصه بها ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف الذي فقدتموه في صغره. وقيل إنه لم يصرح له بأنه أخوه الشقيق وإنما قال هذا من باب التجوز والتشبيه، ويرد هذا تأكيد الجملة الخبرية الاسمية بإن وبتأكيد ضمير المتكلم، ويدل على الحقيقة قوله ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي فلا يرهقنك بعد الآن بؤس أي مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يفعلون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك. فالابتئاس افتعال واهتمام بالأسباب التي تجلب

البؤس والشقاء.

وفي سفر التكوين أن أباهم أرسل معهم هدية إلى الرجل فوق الفضة التي يشترون بها القمح والفضة التي كانت ردت إليهم لاحتمال أن تكون ردت سهوا وقال لهم «٤٢ : ١٣ وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل ١٤والله القديريعطيكم رحمته أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر[1] وبنيامين وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم ١٥ فأخذ الرجال هذه الهدية وأخذوا ضعف الفضة في أياديهم (كذا) وبنيامين وقاموا ونزلوا إلى مصر ووقفوا أمام يوسف ١٦ فلما رأى يوسف بنيامين معهم قال للذي على بيته أدخل الرجال إلى البيت واذبح ذبيحة وهيء (طعاماً) لأن الرجال يأكلون معي عند الظهر ففعل الرجل كما قال يوسف» وفيه أنهم لما أدخلوا إلى بيت يوسف خافوا أن يوقع بهم ويأخذ عبيدهم وحميرهم فقصوا على الرجل قصتهم ومنها ما وجدوه في رحالهم من الفضة المعادة إليهم فطمأنهم وأخرج إليهم أخاهم شمعون وأكرمهم إلى أن جاء يوسف وقت الظهر ليأكل معهم، فلما جاء قدموا له الهدية وسجدوا له إلى الأرض وسألهم عن سلامتهم وسلامة أبيهم أحي هو؟ (٢٨ فقالوا عبدك أبونا سالم هو حي بعد وخروا وسجدوا ٢٩ ورفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه وقال: أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه؟ ثم قال الله ينعم عليك يا ابني ٣٠ واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه وطلب مكاناً ليبكي، فدخل المخدع وبكى هناك ٣١ ثم غسل وجهه وخرج وتجلد. وقال قدموا طعاماً ٣٢ فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم، لان المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين ٣٣ فجلسوا قدامه البكر بحسب بكوريته والصغير بحسب صغره فبهت الرجال بعضهم إلى بعض ودفع حصصاً من قدامه إليهم فكانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم خمسة أضعاف). وهذه الرواية

(١) يعني بأخيهم الآخر شمعون إذ كان على روايته قد أمسكه عنده رهناً ليأتوا ببنيامين.

ذكرها الزمخشري بما هو ألطف مما في سفر التكوين ولم يذكر المصريين بل ذكر أنه أجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لوكان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً (أي حجرة) وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال من يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ إلخ وهذا قريب من العقل والفطرة، وفيه من عواطف الرحم وإيثار الأخ الشقيق على غيره ما سنتكلم عنه في الخلاصة الإجمالية إن شاء الله تعالى.

٧٠ - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ تقدم مثله قريباً ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية بالكسر: المكان الذي يسقى فيه الناس، وولاية سقيهم حيث تكون حرفة (أو مصلحة كما يقال في عرف هذا العصر) ومنه سقاية الحاج المعروفة قبل الإسلام وبعده إلى أن كثر الماء بمكة وكثر الحجاج. قالوا: وتطلق على إناء أو وعاء يسقى به وهو الذي عبر عنه في الآية ٧٢ بصواع الملك، وهو كالصاع مكيال معلوم يكال به الحب وغيره، ويلوح لي انه يسمى سقاية إذا كيل به الشراب الذي يوزع على المستقين كالحجاج إذ كانوا يسقون نبيذ التمر (أي نقيعه) فيكفي عدة منهم، لا إنه ما يكفي الواحد كالكأس والكوب، وقد أطلقه المفسرون على المكيال الذي يسمى المكوك (مذكر) وهو ثلاث كيلجات، والكيلجةُ بكسر الكاف وفتح اللام: كيل معروف لأهل العراق وهي منا وسبعة أثمان منا، والمنا رطلان. اهـ من المصباح. وفي الافصاح إن المكوك نصف الويبة وهي اثنان وعشرون مداً بمد النبي ﷺ أو ثلاث كيلجات، والمد مكيل وهو رطلان أو رطل وثلث وهو أيضاً ربع الصاع. اهـ. فالمكوك على هذا كيلة مصرية، فالسقاية والصواع إذاً كيل من ١٢ من الأردب

المصري المعروف الآن، والظاهر أن إضافته إلى الملك يراد به أنه المكيال الرسمي الذي صدر به أمره، لا كما يفهم من أكثر التفاسير إنه كان كأساً من الذهب أو الفضة لشربه، فما المناسبة بين كأس الشراب، ومكيال بيع الطعام؟ وفي سفر التكوين إنه طاس ليوسف من الفضة كان يشرب فيه ولو لم يسم إلا بالسقاية لصح أن يوافق هذا المعنى. والصاع يصح أن يشرب منه لا به.

وأما رواة التفسير المأثور فأخرجوا عن ابن عباس في السقاية قال: هو الصواع وكل شيء يشرب منه فهو صواع، وفي رواية أخرى عنه في صواع الملك قال شيء يشبه المكوك من فضة كانوا يشربون فيه، وفي رواية إن نافع بن الأزرق قال له اخبرني عن قوله ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ قال الصواع الكأس الذي يشرب فيه: قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت الأعشى وهو يقول:

لـه درمـك في رأسـه ومـشارب وقـدر وطبـاخ وصـاع وديـسق

وفي رواية عنه: صواع الملك كان من نحاس، وعن عكرمة كان من ذهب على ما يذكرون، وفي رواية أخرى عنه كان من فضة، وعن سعيد بن جبير في صواع الملك هو المكوك الذي يلتقي طرفاه كانت تشرب فيه الأعاجم الخ وفي رواية أنه كان فضة مموهة بالذهب. وهذه الروايات لا يمكن أن تكون مأخوذة من اللغة كما علمت وإن ذكرت أقوالهم في بعض كتبها، وبيت الأعشى لا يدل على أن الصواع الكأس الذي يشرب الناس به، وروي عن بعضهم أنهم كانوا يسقون به الحمير وهو أقرب، ولا من التاريخ إلا ما ذكرناه من عبارة سفر التكوين زادوا عليها ما زادوا مما لا دليل عليه. وليس فيها حديث مرفوع صحيح ولا ضعيف، فهي إذاً من الإسرائيليات التي لا قيمة لها.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مناد وقف بينهم ليسمعوا كلهم من التأذين وهو تكرار الأذان وكثرته، ومعناه الإعلام بالشيء الذي تدركه الأذن، يقال آذنه بالشيء إيذاناً: أي أعلمه به، وأذن الناس بكذا أي أعلمهم المرة به بعد المرة ومنه المؤذن

بالصلاة ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ العير بالكسر الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تجيء وتذهب، وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير، كأنها جمع عير بالفتح (كبيت) وهو الحمار، وفي سفر التكوين أن قافلتهم كانت من الحمير - أي نادى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم، والظاهر من السياق أن يوسف عليه السلام وضع السقاية في رحل أخيه بيده ولم يكله إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثاني لئلا يطلعوا على مكيدته، وكان من شأنهم أن افتقدوا السقاية لأنها الصواع الذي يكيلون به للممتارين فلم يجدوها، فأذن موذنهم بذلك أي كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان، وليس في العبارة ولا في السياق ما يدل على أنه قال هذا بأمر يوسف حتى يقال كيف أمره بالكذب ويحتاج إلى تأويله له كما تكلفه بعض المفسرين. وسرق من باب ضرب والمصدر السرق بالتحريك والاسم السرق والسرقة بكسر الراء.

٧١ - ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ أي قال إخوة يوسف لجماعة المؤذن (المنادي) وقد تركوا رحالهم وأقبلوا عليهم ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ من فقد الشيء الموجود أي غاب عنه وعدمه فلم يجده حيث يعهده، وتفقده تعهده وفتش عنه حيث يعهده.

٧٢ - ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي نفقد الصاع الرسمي الذي عليه شارة الملك ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي وسق جمل من الطعام وهو القمح وهذا يدل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير إلا أن يقال إن الأحمال كانت تقدر بما يحمله البعير وإن حملت على غيره ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ يقول المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير أجعله حلواناً للذي يجيء به، يعني إن كان مفقوداً غير مسروق أو جاء به غير سارقه.

٧٣ - ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ القسم بالتاء خاص باسم الجلالة وسمع:

ترب الكعبة، أي لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا في امتيارنا الأول وفي عودتنا وإعادتنا لبضاعتنا التي ردت إلينا مع غيرها لما نبغيه من الميرة الثانية أننا ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر بسرقة ولا غيرها من الاعتداء على الحقوق ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ أي وما كان من شأننا ولا مما يباح في ديننا وأدبنا أن نسرق، فهذا من نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل كما بيناه مراراً.

٧٤ - ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ أي قال فتيان يوسف لهم فما جزاء الصواع على سارقه أو ما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين في جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة؟

٧٥ - ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ أي جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبداً لصاحبه ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير للحكم وتأكيد له في شرع يعقوب وآله وهو أن يسترقّ السارق سنة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم في شرعنا، فنحن أشد الناس عقاباً لهم، وهذا زيادة في تأكيد قولهم لثقتهم ببراءة أنفسهم، ولا يجوز أن نجعل هذه الجملة من كلام فتيان يوسف كما قيل.

٧٦ - ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التي تشتمل عليها رحالهم ابتعاداً عن الشبهة وظن التهمة بالحيلة ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي ثم إنه بعد الفراغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج منه السقاية، وقيل يصح عود الضمير المؤنث إلى الصواع لأنه يذكر ويؤنث كما قال الزجاج ولكن لا يناسب تأنيث ضميره بعد تذكيره في قوله ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾.

ومن دقائق القرآن التي يعز استخراجها على غير مهرة الغواصين على اللآلىء

قوله تعالى ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ بدلاً من أخرجها، فإن الاستفعال في أصل اللغة طلب الفعل لا إيجاده، والطلب يكون بالقول ويكون بالفعل، ونكتة البلاغة فيه هنا أن يوسف فعل الأسباب التي انتهت الى خروج السقاية من وعاء أخيه سواء فعل ذلك بيده أو بأمره لغلمانه وأتباعه، فهذا ابتغاء وطلب لها بفعل أسبابها ومقدماتها، ومن أخرج الشيء من الشيء ابتداء بغير تكلف أسباب ولا مقدمات لا يصح أن يقال استخرجه: يقال أخرج يدك من جيبك ولا يصح أن يقال استخرجها، وقالوا استخرجت الشيء من المعدن بمعنى خلصته من ترابه، فصيغة الاستفعال هنا على أصلها كالتي في الآية، ومنه المستخرجات عند المحدثين فتأمله.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ مثل هذا الكيد الخفي -وهو التدبير الذي يخفى ظاهره عن ناظريه والمتعاملين به حتى يؤدي إلى باطنه المراد منه- كدنا ليوسف أى ألهمناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ هذا استئناف لبيان علة الكيد له معناه أنه ما كان من شأنه ولا مما تبيحه له أمانته لملك مصر أن يخالف دينه أي شرعه الذي يدين الله تعالى به في أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرجوع معهم وهو ملتزم له بتفويضه الحكم في بلاده به، فأخذه بغير جرم يبيحه له ظلم واستبداد، وللسرقة عقاب دون أخذ السارق واسترقاقه.

بيان هذا الكيد الإلهي انه لما كان استبقاء بنيامين عند يوسف مصلحة اقتضتها الحكمة الربانية في تربية إخوته وعقابهم بما فرطوا في يوسف وتمحيصهم وتصفيتهم واصطفاء أبيهم أيضاً واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بصفة غير استبدادية وغير ما تقتضيه شريعة الملك، وما هو إلا أن يكون بحكم اختياري من إخوته على أنفسهم بمقتضى شريعتهم، يذوقون به ألمه ومرارته فيما لا لوم به على أحد غير أنفسهم، ولا سبيل إلى هذا الحكم منهم إلا وقوع شبهة السرق على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته.

ولما كانت هذه الوسيلة الوحيدة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة الظاهر لأنها

تهمة باطلة وكان من شأن يوسف أن يتأثم بها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى بين تعالى أنه فعل ذلك بمشيئته وإذنه فقال ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فهو نص صريح في أنه فعل ذلك بإذن الله تعالى ووحيه لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة، واحتال بها لمخالفة الشريعة، كما يزعمه علماء السوء أصحاب الحيل التي يخترعونها لاتباع أهوائهم والخروج عن حكمة ربهم وحكمه معاً ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ في العلم والإيمان كما رفعنا درجة يوسف ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ أوسع إحاطة وأرفع درجة منه في العلم المطلق إما علمه وإما غير علمه الذي تفوق فيه كما تدل عليه قصة موسى مع الخضر، فلا يوجد أحد من علماء الخلق يحيط علما بكل شيء فيكون فوقهم كلهم ولا يكون فوقه أحد، وإنما الذي أحاط بكل شيء علماً وهو فوق كل ذي علم على الإطلاق فهو الله رب العالمين عز وجل الذي أحاط بكل شيء علماً.

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ماذا قال إخوة يوسف العشرة عندما رأوا السقاية قد استخرجت من وعاء بنيامين؟

٧٧ - ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ ﴾ هذا من دوننا وما كانت السرقة من شأننا ودأبنا ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ يعنون يوسف عليه السلام وأن العلة فيه وفي أخيه واحدة وهي أمهما، كأنهما ورثا هذه الجريمة منها، إذ لا ينفردان دونهم إلا بها، وهذه التهمة دليل على أن حسدهم لهما لا يزال كامناً في قلوبهم وأن علته الأولى اختلاف الأمهات، وزيادة عطف الأب عليهما كما قلنا في تفسير أول السورة. ويجوز أن تكون هذه التهمة كاذبة كقولهم (أَكَلَهُ الذِّئْبُ) وأن يكون شبهة كشبهة سرق بنيامين.

اختلف المفسرون في هذا وذاك ورووا فيه رويات لا يعرف لها أصل إلا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً قال «سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضه فكسره وألقاه في الطريق فعيره بذلك إخوته» وعن سعيد ابن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ولم يخرج المرفوع أحد من رواة التفسير المأثور غير ابن مردويه ولم يعتمده منهم أحد بل عبر بعضهم عنه بقيل. وقيل كان الصنم لخاله يعبده فأمرته أمه بسرقته وكانت مسلمة، وقيل سرقه من كنيسة وقيل سرق مكحلة لخالته، وقيل بيضة وقيل دجاجة، وقيل أخذ شيئاً من الطعام عن المائدة فتصدق به. وكل هذه رويات إسرائيلية سخيفة كان زنادقة اليهود يضحكون بها على المسلمين وأبقها وأليقها بالمقام ما أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد وهو: قال كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق فكانوا يتوارثونها بالكبر وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها وإليها فلم يحب أحد شيئاً من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال: يا أخية[1] سلمي إليَّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها، فالتمست ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام فقالت: والله إنه لسلم لي أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر فقال لها: أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت عليها السلام، فهو الذي يقول أخوة يوسف عليهم السلام حين صنع بأخيه

---

(١) تصغير أخت للتحبب.

ما صنع ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ والرويات لا يوثق بها ولا يدل شيء منها على سرقة حقيقية.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي فكتم هذه القولة أو الكلمة التي سمعها يوسف منهم في نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي لم يؤاخذهم بها قولاً ولا عملاً لأنه بلغ منهم كل ما أراد من حيث لم يتعرف إليهم ولكنه ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تفترونه، يعني أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق، وقلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو أنكم كاذبون فهو يجازيكم عليه في الدنيا الآن. والظاهر أنه قال هذا في نفسه فهو استئناف بياني، ورجح بعضهم أن هذه الجملة تفسير للضمير في (أَسَرَّهَا) على أنه مما يسميه النحاة الإضمار على شريطة التفسير الذي يجوزون به عود الضمير المتقدم على المتأخر عنه لفظاً ورتبة وله شواهد ونازع فيه بعض أئمتهم بما لا محل له في تفسيرنا.

٧٨ - ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ بالغاً غاية الكبر في الشيخوخة أو كبير القدر جديراً بالرعاية كما علمت مما قصصناه عليك من خبره وتعلقه به ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ بدله إذ استحققت أخذه فهو يحل محله عندك فيما تشاء من الخدمة التي تراد من الرقيق، من حيث ترحم هذا الشيخ الكبير فيما لا يضيرك ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين لا يأبون إحساناً يقدرون عليه أو من المحسنين إلينا في ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا، وهذا الذي نرجوه منك الآن، هو غاية الإحسان.

٧٩ - ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾ وهو الصواع ﴿عِندَهُ﴾ وهو بنيامين، ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب فانه يعلم انه ليس بسارق، وقول المنادي ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ مبني على

الظاهر له من فقد الصواع فقد قال ما اعتقد ولم يكن يعلم المكيدة كما تقدم على أنه ليس كيوسف في تحري الحق ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي إذا أخذنا غيره ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ بمخالفة حكم شرعكم ونص فتواكم من إحدى الناحيتين ولشريعة الملك من الثانية.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ
عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ
يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا
شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا
وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ
يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

٨٠ - ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي استحكم اليأس في أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم لإقامته الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وكون فعله حينئذ يكون ظلماً بحكم الشريعتين: شريعتهم وشريعة ملك مصر، أو استيأسوا من بنيامين أن يعود معهم إلى أبيهم، فالاستيئاس هنا أخص من اليأس الذي يقع ابتداءً من غير طلب لأسباب الرجاء التي تحول دونه فهو على أصل معنى الصيغة كما قلنا آنفاً في كلمة ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ وعبروا عنه بالمبالغة في اليأس ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ انفصلوا من كل شيء كانوا فيه وانجمعوا دون يوسف واخيه وفتيانه لا يخالطهم أحد ولا شيء خالصين للمناجاة والمسارة في أمرهم كانهم نجي واحد أو كأنهم نفس المناجاة، فالنجي يطلق بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم] وبمعنى المصدر أو اسمه أي التناجي والنجوى فيستوى فيه المفرد والمثنى والجمع فيقال هم نجي ونجوى ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء].

وهذه الجملة في منتهى البلاغة وإعجاز الإيجاز، يتمثل للعربي عند سماعها أولئك الإخوة العشرة وقد أعرض كبيرهم عن استعطاف العزيز، وغادر كل واحد رحله وما كان فيه، وانكمش بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهفوا آذانهم للنجوى ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن والرأي ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عهداً مؤكداً بالقسم بالله لتأتنه ببنيامين إلا أن يحاط بكم فلا يبقى منكم أحد وما الوقت ببعيد فينسى ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ التفريط في الشيء المبالغة في التقصير والإهمال له، وضده الإفراط وهو المبالغة فوق الحاجة - أي ومن قبل هذا ما قصرتم في حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه، أو تفريطكم فيه، وما قاساه أبوكم من الحزن عليه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي فلن أفارق هذه الأرض أو أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بتركها وبنيامين فيها والرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بأمر من عنده مما هو غيب في علمه كأن يترك العزيز لي أخي بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر، فالحكم هنا تكويني لا تكليفي وهو المعبر عنه بالقضاء والقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالحق وهو المقدر للأقدار، والمسخر للأسباب.

٨١ - ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر عملاً بشريعتنا إذ اضطررنا إلى إنبائه بها بعد أن استنبأنا. والاكتفاء بكلمة ﴿سَرَقَ﴾ من إيجاز القرآن في السكوت عن المعروف بالقرينة أو غيرها من الدلائل كقوله تعالى ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣] ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة: ماشهدنا ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه، أو ما شهدنا للعزيز بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شرعنا علماً قطعياً جرى به العمل ﴿وَمَا كُنَّا

﴿لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ فنعلم أنه يسرق - أو فنعلم كيف وقع له هذا: هل هو حق أو كيد كيد له؟ ولو كنا نعلم الغيب لما آتيناك الموثق علينا.

٨٢ - ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي أهل القرية التي كنا نمتار فيها، وهي مصر، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم بحيث لو سئلوا لشهدوا، أو اسأل زائريها، قال الراغب: القرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً ويستعمل في كل واحد منهما، ومنه قرية النمل، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي أصحابها ممن كانوا يمتارون معنا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في شهادتنا سواء أسألت غيرنا أم لا. انتهى ما لقنهم إياه كبيرهم.

٨٣ - ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي فرجع الإخوة التسعة إلى أبيهم فقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم على تأكيدهم للخبر وإنما قال لهم ما معناه إن الأمر ليس كما تقولون بل سولت لكم أنفسكم أمرا كيداً آخر أي هيئته وزينته لكم فنفذتموه، فإن لم تكونوا تريدون بأخيكم سوءاً فلم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به؟ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فالذي عليَّ والمصيبة قد وقعت صبر جميل أتجمل به بين الناس وأشكو أمري إلى الله دونهم وأنوط الرجاء به وحده ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني أولاده الثلاث: يوسف وبنيامين وكبيرهم الذي بقي مرابطاً في مصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يحيط علماً بحالي وحالهم وله فينا حكمة بالغة هي ولا بد بالغة أجلها، وهذا يلاقي قوله ليوسف إذ قص عليه رؤياه ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فتأمل وتدبر، وتذكر واعتبر.

٨٤ - ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن أولاده قاطعاً للكلام معهم كراهة له ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا حزني ويا حسرتي عليه، اقبلي فقد حقت كلمتك

علي، قال الزمخشري الأسف أشد الحزن والحسرة، وقال الراغب: الأسف الحزن والغضب معاً وقد يقال لكل منهما على الانفراد، وذكر أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً. اهـ مختصراً ومن استعماله في الغضب قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزُّخرُف:٥٥] وقال الزجاج: الأصل (يا أسفي) فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة. والأسف شدة الجزع وقيل شدة الحزن ومناداة الأسف تعبير عن الشعور بأن الوقت وقته فهو قد وقع بحق فإن الطبيعة مقتضية له فلا مناص منه لما تجدد من سبب اهتياجه إذ كان ينتظر أن يأتوه من مصر ببشرى لقاء يوسف كما علم مما قلناه في تفسير الحاجة التي كانت مطوية في سويداء قلبه إذ نصح لهم بالدخول من أبواب متفرقة، فخاب أمله وحل محله ذهاب ابنه المسلي عنه، ولم يشركهم معه بالأسف عليه لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه، قد ملأ سويداء القلب وزواياه ومحانيه، وإنما محل غيره وراء شغافه وجداره الخارجي.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي عميتا أو اصابتهما غشاوة بيضاء ذهبت ببصرهما موقتاً مع بقاء عصبهما المدرك للمبصرات صحيحاً ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مملوء غيظاً على أولاده قد كتمه في نفسه وفسروه بالمغموم وبالمكروب وبالكمد والمكمود، وقال قتادة: كظم على الحزن فلم يقل إلا خيراً، وفي لفظ: يردد حزنه في جوفه ولم يتكلم بسوء، وهو من كظم السقاء إذا شده بعد ملئه، وكظم البعير إذا ترك الاجترار، والكظم مخرج النفس ويقال لمن يكتم ما في نفسه ككتم نفسه كظيم ومكظوم، والحزن عرض من أعراض النفس الطبيعية لا يذم شرعاً إلا إذا بلغ بصاحبه الجزع أن يقول أو يفعل ما لا يرضي الله تعالى كما قال سيد الصابرين ﷺ عند موت ولده إبراهيم وقد جعلت عيناه تذرفان فقال له ابن عوف: وأنت يا رسول الله! فقال «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى «فقال إن العين تدمع

والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون» رواه الشيخان وغيرهما.

ولكن الأنفس العالية لا يبلغ منها الحزن غايته إلا إذا كان المحرك له أمر إلهي يليق بها كما يعلم من الآية الآتية في جواب يعقوب لأولاده على عذلهم له.

وفي التفسير المأثور عن النبي ﷺ قال «إن داود عليه السلام قال يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب فاجعلني لهم رابعاً. فأوحى الله إليه أن يا داود إن إبراهيم ألقي في النار بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن وتلك بلية لم تنلك» وهذا حديث مرسل أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن الحسن عن الأحنف بن قيس، وعلي بن زيد بن جدعان هذا ضعيف له مناكير ضعفه الإمام أحمد كما روى ذلك عنه أولاده: حنبل وعبد الله وصالح وغيرهم وقال الجوزجاني: واهي الحديث ضعيف وفيه ميل عن القصد. قالوا وكان رافضياً وقد اختلط في آخر عمره وقالوا انه كان يقلب الأحاديث ورفّاعاً أي يرفع إلى النبي ﷺ ما ليس بمرفوع. وقال الحافظ ابن كثير في هذا الحديث: وهذا مرسل وفيه نكارة فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح ولكن علي بن زيد ابن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة والله أعلم. وأقرب ما في هذا أن الأحنف ابن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني اسرائيل ككعب الأحبار ووهب ونحوهما والله أعلم فإن بني اسرائيل ينقلون ان يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه: إنا أهل بيت مصابون بالبلاء فإبراهيم ابتلي بالنار واسحاق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لا يصح والله أعلم.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

﴿٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

٨٥ - ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قسماً بالله لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتلهج به لا تفتر ولا تنسى همه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مشفياً من التلف ومشرفاً على الهلاك من شدة الحزن والجزع ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ بالفعل فتموت كمداً. الأصل في فعل فتيء أن يستعمل منفياً كأخواته «ما زال وما برح وما انفك» فيقال ما فتيء ولا تفتؤ فحذف (لا) مع القسم لأنه لا يلتبس بالإثبات لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي ومن الشواهد عليه قول امرىء القيس:

فقلت يمينَ الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

والحرض مصدر حرض (كتعب) إذا أشرف على الهلاك من مرض أو حزن أو خوف فهو حرض بالتحريك يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً لأنه مصدر وقال الراغب: الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك. وفي الأساس: نهك فلان مرضاً، حتى أصبح حرضاً وهو المشفي على الهلاك، ولا تأكل كذا فانه يُمرضك ويُحرضك. اهـ.

٨٦ - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أصل البث تفريق المجتمع وإثارة الكامن، وبث النفس إظهار ما انطوت عليه من الغم أو السر، أي لم تلومونني وأنا لم أشك إليكم ولا إلى أحد من الخلق كمدي الذي ضاق صدري عن حبسه فبثثته، وحزني الذي أمضني كتمانه فأفشيته بهذه الكلمة ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؟ إنما أشكو ذلك إلى الله وحده ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في ابتلائي بفراق يوسف وخفاء حاله علي وحسن عاقبته ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أعلم منه أنه حي يرزق وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب وذريته به في الدنيا والآخرة، وأرى البلاء يتناوشكم من كل

جانب بذنوبكم وبتفريطكم بيوسف من قبل، وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعد، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك، وأن بنيامين قد سرق فاسْتُرِقَّ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاه فلا مردَّ له، وأنا أعلم أن له أجلاً فيه هو بالغه، كلا.

هذا ما يدل عليه حال يعقوب عليه السلام ثم راجعت الدر المنثور فرأيت في تفسير الآية رويات وعظية لا يصح منها شيء ولا يليق بنبي الله مبنية على عدم التفرقة بين الشكوى من الله والشكوى إلى الله التي هي مناجاة واسترحام لله، ومن أكذبها ما عزاه وهب بن منبه إلى التوراة. وإنما الفهم الصحيح منها ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يقول أعلم أن رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له.

٨٧ - ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي اذهبوا إلى مصر فتكلفوا أن تدركوا بحواسكم من سمع وبصر شيئاً من حال يوسف وأخيه حتى تكونوا على يقين من أمرهما ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي فرجه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب، وترويحه بما ترتاح له الروح ويطمئن به القلب ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بقدرته وسعة رحمته الذين لا يتجاوز علمهم بشئون أنفسهم وأحداث زمانهم دائرة ظنونهم واختبارهم الناقص – إلى ما لله عز وجل في عباده من حكم بالغة ولطف خفي، فإذا تقطعت بهم الأسباب دون ما يبغونه من كشف ضر أو جلب خير، بخعوا أنفسهم أسفاً، وانتحروا بأيديهم هماً وحزناً، فأنفع ما يمتاز به المؤمن على الكافر أن المصائب والشدائد لا تقنطه من رحمة ربه وتفريجه لكربه، وإن عظم عليه المصاب، وتقطعت به الأسباب.

ثم اعلم أن الروح (بالفتح) ما ترتاح له الروح (بالضم) وهما من مادة الريح، كما أن مرادفها وهو النفس (بالفتح) من مادة النفس (بالتحريك) وهو نسيم الهواء

الذي يتنفسه الإنسان فيطهر دمه ويحفظ حياة نفسه الحيوانية، وما سميت اللطيفة الربانية المدركة العاقلة نفساً وروحاً -وهي من عالم الغيب- إلا لأن نسيم الهواء أقرب ما في عالم الشهادة إليها في لطافتها وما في معناها من معنى الحياة. قال الشاعر:

وحل من نفسي محل النفس

فروح الله لطفه الذي هو واسطة بين الحياتين الروحية والحيوانية بما فيه من تنفيس كرب النفس، ويسمى الفرج بعد الضيق نفساً (بالتحريك) ومنه حديث «إني لأجد نَفَس الرحمن من ههنا» وأشار إلى اليمين وله تتمة رواه الطبراني عن سلمة بن نفيل، وحديث «لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تعالى» الخ رواه أحمد وابن ماجة عن أبي هريرة والنسائي والحاكم عن أبيٍّ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

الفصل الرابع في الفرج القريب وعطف الحبيب على الحبيب

٨٨ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي أصابنا ضر المجاعة من هزال وضعف، شكوا هذه المرة ما لم يشكوا من قبل ليروا تأثير الشكوى فيه، وغرضهم الأول التحسس لا الامتيار، شعروا أن أباهم يرجح أنه هو يوسف فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ رديئة من شأنها

أن يدفعها التجار ويردوها احتقارا لها، إذ لم يبق عندنا غيرها، من أزجى الشيء وزجاه إذا دفعه برفق، ومنه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور:٤٣] وفي المصباح: وبضاعة مزجاة تدفع بها الأيام لقلتها، وأزجيت الأمر أخرته، وذكر بعض رواة المأثور نوع هذه البضاعة ولا مستند له، وهذه العودة بين مصر وفلسطين لم تذكر في سفر التكوين ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أكمله كعادتك الحميدة ومقتضى إحسانك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد إغماضك عن رداءتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بإخلاف ما ينفقونه والمضاعفة لهم بما هو خير منه، بالغوا في التذلل والاستماحة وإظهار الذل والحاجة لما ذكرنا آنفا من تحسس تأثير ذلك في معارف وجهه، وجرس صوته، ومغالبة دمعه، واستشكل المفسرون طلب الصدقة وهي لا تحل للأنبياء قياساً على خاتمهم عليه وعليهم السلام، والقياس مع الفارق، والجماعة لم يكونوا أنبياء، وما فعلوه معه كاف في الدلالة على بعدهم عن النبوة واختصاصه بها دونهم كما تقدم، ولقد كان تحسسهم في موضعه، فماذا قال يوسف؟

٨٩ – ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؟ أي هل علمتم الآن ما آن لكم أن تعلموه بالتجارب في هذه السن من عاقبة ما فعلتم بيوسف من قبل وأخيه بنيامين من بعد، وقد قرب العهد ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قبح فعلكم، في نظر ربكم، وحكم شرعكم، وحقوق بر الوالد، ورحمة الرحم، أي في الحال التي كان يغلب عليكم الجهل بهذه الحقوق، وبعاقبة البغي والعقوق، ويجوز أن يكون مراده بالجهل ما يقابل العقل والحلم، لا ما يضاد العلم، وهو الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة، والمختار عندي الجمع بين المعنيين فكلاهما كان واقعاً.

قال يوسف هذا تمهيداً لتعريفهم بنفسه إذ آن أن يصارحهم به، وقد بلغت الأقدار من تربيتها له ولهم غايتها، ولم يبق بعد هذا التمهيد إلا التصريح، وتأويل رؤياه التي كانت السبب الأول لكل هاتيك الأفاعيل، وقد كان هذا التمهيد عجباً

في بلاغته، وما يدل عليه من شعور يوسف الصديق النبي عليه السلام وخلقه ودينه وأدبه، إذ فصل بهذا السؤال الوجيز الساذج في قضية يحار في الفصل فيها أوسع القضاة عدلاً ورحمة، ويعيا بالتعبير المرضي عنها أبلغ الأدباء علماً وحكمة، وهي مقابلة طرفين تعمد أحدهما اقتراف جناية على الآخر طال عليها الأمد عشرات السنين، وكانت غايتها أن يقف الجاني بين يدي المجني عليه وهو يجهله موقف البائس الفقير، المستجدي الحقير، على ما نشأ عليه من عزة النفس، وشرف الحسب والنسب، واقتضت الحال أن يتعارفا وهما أخوان، وأن يتناسيا ما كان، فكيف يتقابلان؟

المقام مقام خجل من الجاني وخسوف وكسوف، واسوداد وجوه، وتنكيس أبصار، واعتذار واستغفار، يذيب الفؤاد ويخرس اللسان، يقابله حلم وعفو وكرم من المجني عليه، ربما كان الاعتزاز بها على الجاني لأول وهلة أقتل لعزة نفسه وإبائه من العتاب ومما هو أشد منه وهو التأنيب والتثريب، فكيف كان المخرج ليوسف عليه السلام، من هذا المأزق الذي تحار فيه الأفهام، ويضطرب فيه الوجدان، بما يكون خير أسوة لصلة الأرحام، ومحو الإساءة بالإحسان؟

ذكر إخوته بذنوبهم قبل أن يتعرف إليهم، تذكيراً مجملاً مقروناً بذكر العذر الطبيعي دون الشرعي، وهو الجهل بقبح الذنب في نفسه وبسوء عاقبته، وبالجهالة التي تزينه لفاعله، وتمكن لنزغ الشيطان من نفسه الأمارة بالسوء، بل بهما جميعاً. ذكرهم هذا بسؤالهم سؤال العارف المتجاهل، باستفهام التقرير، لا التقريع والتوبيخ كما قيل، فانه يرده ما يأتي من نفي التثريب، واستغفار العفو والصفح، وأما سهم أخيه من فعلتهم فهو ما اقتضاه إشراكهم إياه في حسدهم له من أول نشأته الدال عليه قولهم أولا ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وقول أبيهم آخرا ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾؟ واتهامه إياهم بأنهم ما أفتوا عزيز مصر باسترقاقه بالسرقة إلا بما أضمروه له من حقد، وما سولته لهم أنفسهم من أمر،

ولا يخفى على ذكي ولا بليد، كيف يعيش الفرد المحسود الضعيف، مع جماعة تحسده وتكيد له.

هذا ما أفهمه من عرض القضية على ما نعلم من طباع البشر وسنة الله في الاجتماع، ويقرب منه من إحدى النواحي ويبعد عنه من سائرها ما قاله الزمخشري مشيراً الى ترجيح قول جماعته (المعتزلة) على خصومهم (الأشعرية) في مسألة التقبيح والتحسين، وإنا نورده لبلاغة عبارته واتباع غيره له فيه ثم نشير إلى ما فيه وهو:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم﴾ أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فقال هل علمتم قبح ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؟ لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه، يعني هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحاً لهم في الدين لا معاتبة وتثريباً، إيثاراً لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور. فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها، وقيل لم يرد نفي العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم جاهلين، وقيل معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة، روي أنهم لما قالوا ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ وتضرعوا إليه ارفضت عيناه ثم قال هذا القول. وقيل أدوا إليه كتاب يعقوب:

«من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر. أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليَّ

فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليَّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام» فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا. اهـ قول الزمخشري وأقره ابن المنير وغيره عليه، بل اتبعوه فيه.

أقول: أما ما قاله في تفسير سؤالهم عن العلم بأن نفى علمهم بقبحه وعلله بأنهم لو علموه لما فعلوه فهو تكلف مخالف لطباع البشر فإنهم يفعلون القبيح وهم يعلمون قبحه طاعة للحسد والأثرة، وترجيحاً للهوى على الهدى، وأما الرواية التي ذكرها في كتاب يعقوب عليه السلام إلى عزيز مصر فهي من الإسرائيليات الباطلة، وأسلوبه إسلامي مصنوع، ومن أغراض كعب الأحبار ووهب بن منبه المروي عنه فيه إقناع المسلمين بأن الذبيح إسحاق لا إسماعيل كما تقدم في تفسير الآية ٨٤ خلافاً للمتواتر عند العرب الذي أقره الإسلام وجعلت الأضاحي وهي سنة إبراهيم في فداء ولده اسماعيل من مناسك الحج حيث فداه الله في منى من ضواحي مكة وطن اسماعيل، فبث زنادقة اليهود في التفسير المأثور أن الذبيح إسحاق، وقد صار هذا مذهباً يؤخذ بالتقليد ويحرف لأجله تفسير القرآن، فان القصة في سورة الصافات صريحة في أن الذبيح هو ولد إبراهيم الأول (إسماعيل) وأن الله قد بشره على إحسانه فيها بولده الثاني (إسحاق) إذ قال في آخرها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ -إلى قوله- وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[الصافات].

٩٠ - ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قرأه ابن كثير (إنك) بهمزة واحدة والجمهور بهمزتين، كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه سؤال عارف بأمرهم معهما من أوله البعيد جداً إلى آخره القريب جداً، مصداقاً لما أوحاه الله إليه

حين ألقوه في غيابة الجب ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ودليل راجحاً على أنه هو يوسف إذ يبعد أن يعرف غيره هذا، فأرادوا أن يتثبتوا منه بالعلم اليقين الذي يذهب بكل احتمال لما يعترضه من الشبهة بوجوده في هذا المنصب السامي فوجهوا إليه الاستفهام بجملة اسمية مؤكدة بإن في اسمها وباللام في خبرها وبضمير الفصل بينهما، يعنون: أمن المؤكد القطعي الذي لا ريب فيه انك أنت يوسف؟ ولولا هذا لكان يكفيهم أن يقولوا: أأنت يوسف؟

ومن العجيب أن يتكلف المفسرون سبباً لهذا السؤال يتحلونه أو ينقلونه عمن يتقولون مثله من رواة الإسرائيليات كقول بعضهم إنه تبسم فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وما كان هذا المقام معهم بمقام تبسم، وكان أولى منه بالتبسم يوم ضيافتهم، ومجلس مؤاكلتهم، وقول آخر إنه رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء!! ونقول: من ذا الذي رأى هذا القرن فرواه بإسناده المتصل في هذه القرون الطويلة؟ ولم يسلم من الكلفة أو السخافة من قارب الصواب منهم فقال إنهم عرفوه بالخطاب الذي لا يصدر إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، نعم إنهم عرفوه بخطابه معرفة ظنية راجحة كما قلنا، ولكنه خطاب لا يدل على الإسلام ولا على نسب إبراهيم عليه السلام بل خطاب عارف بما وقع، وكونه مسلماً من سنخ إبراهيم ليس من مدلول خطابه بنص ولا فحوى وإن كان هو الواقع بالفعل، فلله العجب من افتتان جماهير الناس بهذه الروايات وتقليد بعض المفسرين فيها لبعض، من غير تأمل ولا بحث، كأنها من كلام الله الذي يجب تلقيه بالقبول والتسليم.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ صرح باسمه العلم لأنه نص قطعي الدلالة مطابق للسؤال ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ الذي فرقتم بيني وبينه ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ فجمع بيننا على أحسن حال في ديننا ودنيانا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي إن الأمر الواقع والحق الثابت بالوحي وباستقراء التجارب هو ما تنطق به هذه القضية: من يتق الله فيما أمر

به ونهى عنه، وفيما جرت به سنته في الاجتماع البشري، ويصبر على ما أصابه من المصائب والمحن وفتن الشهوات والأهواء حتى يبلغ الكتاب أجله فيها فلا يستعجل الأقدار بشيء منها قبل أوانه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يوفيهم أجورهم في الدنيا ثم في الآخرة وهو من خيارهم، علق الجزاء على الإحسان في الأعمال فوضع الظاهر موضع الضمير، فلم يقل (لا يضيع أجرهم) لأنه تعليق على الوصف الجامع الذي هو علته، وبيان للقاعدة العامة في السنة الإلهية فيه، وتواضع في وضع التعريض بنفسه في موضع التصريح بأنه كان عليه السلام كذلك في تقوى الله العامة، وفي الصبر على الشدائد المرهقة، وعن الشهوات الفاتنة، ولا غرو فقد شهد له ربه بأنه من المحسنين، وفي الآية تذكير بأن من لم يكن من المتقين الصابرين، بأن كان من المطيعين للنفس الأمارة بالسوء، والمتبعين لنزغات الشيطان، فإن عاقبتهم الذل والخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، وأشد وأبقى، إلا من تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى.

٩١ - ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي اختارك وفضلك علينا في كل شيء من خلق وخلق وعلم وعمل وجزاء وإحسان. يدل على هذا العموم السكوت عن متعلق الإيثار والعلم بأنه الحق الواقع بالفعل ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي والحال أن شأننا معك هو أنا كنا مذنبين متعمدين للخطيئة لا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس. أصل الإيثار التفضيل بالآثار، وهي ما يؤثر ويروى من الفضل أو ما يظهر أثره أو يبقى، والخاطيء فاعل الخِطء (بالكسر) وهو الذنب. قال في المصباح: والخطأ مهموز بفتحتين ويقصر ويمد وهو اسم من أخطأ فهو مخطيء، قال أبو عبيد خطيء خطأً من باب علم وأخطأ بمعنى واحد لمن يذنب على غير عمد، وقال غيره خطيء في الدين وأخطأ في كل شيء عامداً كان أو غير عامد، وقيل خطيء إذا تعمد ما نهى الله عنه فهو خاطيء، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، فإن أراد غير الصواب وفعله، قيل قصده أو تعمده، والخطء الذنب تسميه

بالمصدر وخطَّأته بالتثقيل قلت له أخطأت أو جعلته مخطئاً، وأخطأه الحق إذا بعد عنه، وأخطأه السهم تجاوزه ولم يصبه، وتخفيف الرباعي جائز. اهـ.

٩٢ - ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا محل لأي شيء من اللوم والتعنيف عليكم في هذا اليوم الذي هو مظنته فإنني أعده يوم عفو وسماح وعيد، ودخول في عصر جديد، قال في المصباح: ثرب عليه من باب ضرب عتب ولام، وثرَّب (بالتشديد) مبالغة وتكثير. ونقل بعض المفسرين عن ثعلب: ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه. قال ابن الانباري قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب، وقال تبع:

فعفوت عنهم عفو غير مثرب   وتركتهم لعقاب يوم سرمد

ولكن يوسف عليه السلام عفا عنهم عفو غير مثرب وتركهم لمغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته فقال بعد نفي جنس التثريب ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دعا لهم بأن يغفر الله لهم خطاياهم معه إذ غفر هو لهم والله أولى وأحق بالمغفرة وهو أرحم الراحمين من الأقربين وغيرهم، والأصل في الدعاء أن يكون بفعل المستقبل وإنما يذكر بالفعل الماضي للتفاؤل، ويحتمل أن يتعلق الظرف ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالدعاء على سبيل البشارة، وقد تمثل النبي ﷺ بالآية يوم الفتح فروي عنه أنه طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال «ماذا تقولون أو ماذا تظنون؟» وفي رواية زيادة «أني فاعل فيكم» قالوا نقول خير أو نظن خيراً: ابن أخ وابن عم كريم، وفي رواية «حليم رحيم» فقال «أقول كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية»، فخرجوا كأنما نشروا من القبور. أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة وأبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقد كانت أخلاقه ﷺ أكرم وأحلم وأسمح وأسجع فإن قومه أخرجوه (نفوه) وقاتلوه لأجل دينه وعذبوا ضعفاء أتباعه وقتلوا منهم خلقاً

كثيراً وكان له بحسب نظام الحرب المتبع عندهم وعند غيرهم أن يقتلهم تقتيلاً أو يتخذهم عبيداً.

٩٣ - ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ وأشار إلى قميص كان على بدنه أو بيده ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ عند وصولكم إليه بلا تأخير ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يصر بصيراً في الحال أو يعود ويرتد بصيراً. هذا ما يدل عليه عطف هذه الجملة الشرطية بالفاء وسأتكلم على ما قيل في القميص وسبب تأثيره ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من الرجال والنساء والذراري لأجل الإقامة عندي في جواري آمنين.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

٩٤ - ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي إنفصلت عير بني يعقوب من عريش مصر أو حدودها قافلة إلى أرض الشام، يقال فصل من البلد وانفصل منه ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره وكان عنده من أحفاده وغيرهم ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ في نفحة طيبة هبت عليَّ من روحه أو أشم رائحة ذاته كما عرفتها في صغره ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا تفنيدكم إياي أي نسبتي إلى الفند وهو بالتحريك فساد الرأي، وضعف العقل والخرف من سوء الكبر، لصدقتموني في انني أجد رائحته حقيقة غير متوهم وأنه حي قد قرب موعد لقائه والتمتع بقربه ورؤيته، عن ابن عباس قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف قال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون: تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وفي رواية من عشرة أيام وفي رواية ثمانين فرسخاً، والمراد من مسافة بعيدة جداً اختلفت الأقوال فيها لتعذر العلم بتحديدها، وصاحب الوجدان لا يبالي ما يقال فيه إلا مراعاة

لحرمان العاذل من الشعور بمثله، وعلمه بأنه لو شعر لعذر وما عذل، قال جرير بن عطية:

يــا عــاذليَّ دعــا المــلام وأقــصرا طــال الهــوى واطلــتما التفنيــدا

٩٥ - ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي قال حاضروا مجلسه تالله إنك لفي خطئك الذي طال أمده في اعتقادك أن يوسف حي يرجى لقاؤه وقد قرب، أو في الإفراط في حبه والإصرار على اللهج به، وتوهمك وجدان رائحته، فالضلال يطلق على الخطأ في الطريق الحسي والمعنوي ومنه الخطأ في الرأي والاعتقاد والحب والبغض والعمل ولا غرو فللخلي أن يقول في عذل الشجي ما يشاء، فأذنه عن العذل صماء:

ســلوتي عــنكم احــتمال بعيــد وافتــضاحي بكــم ضــلال قــديم
كــل مــن يــدعي المحبــة فــيكم ثــم يخــشى المــلام فهــو ملــيم
لا يعــرف الــشوق إلا مــن يكابــده ولا الــصبابة إلا مــن يعانيهــا

٩٦ - ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو ابنه الذي يحمل القميص من يوسف، وعن ابن عباس والضحاك أنه البريد، ويتجه أن يكون قد سبق العير إليه بريداً وبشيراً ومن المعقول ما قيل من أنه هو الذي حمل إليه قميصه الملطخ بالدم الكذب تحرى ذلك ليمحو السيئة بالحسنة، قالوا وهو يهوذا، وهذا الرأي يحتاج إلى رواية مثله في حسنه تؤيده، فمن أين جاء به مجاهد والسدي؟ ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيراً كما كان، وزاد بعضهم أنه عادت إليه سائر قواه، ولا غرو فالشفاء من الأمراض. وتجدد قوى الأرواح والأبدان بتأثير السرور العظيم غير منكر عند الأطباء ولا في تجارب الناس، فما القول بتجارب الأنبياء والأصفياء، وبما يزاد لهم بعناية الله من خوارق العادات، والآيات البينات، ورووا أنه سأل البشير عن دين يوسف فيما هو فيه من زينة الملك

وعظمته؟ فقال الإسلام، قال الآن تمت النعمة!! وأقول إن مخترع هذا السؤال لقليل العلم وضعيف الذوق، فلو كان يعقوب يخاف على دين يوسف فيشك فيه لما كان وَجْدُهُ به ما علمنا، وحزنه عليه ما قرأنا وسمعنا، بل كان مؤمناً منذ قص عليه رؤياه بأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق، فكيف يسأل عن دينه سؤال الشاك المرتاب، تأملوا كيف أجاب العاذلين بما كان عليه من العلم الإلهي القطعي؟!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فذكرهم الآن إذ عاد بصيراً بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو انه يعلم من أمر يوسف ما لا يعلمون، وان علمه هذا وحي من الله عز وجل لا من خطرات الأوهام، ولا من أخيلة الحب والغرام، وإننا في هذا المقام نبسط القول في وجدان يعقوب ريح ولده مع التصريح بأنه يكفي أحدنا الإيمان بظاهره من غير بحث عن حقيقته وصفة وقوعه، وما دام مصدقاً للقرآن، فهو في حظيرة أهل الإيمان،ولكن العلم بصفته وسنة الله فيه زيادة كمال.

بحث في وجدان يعقوب رائحة يوسف والوجوه فيها

قد ثبت عند علماء الغرب في هذا العصر أن الرياح تحمل الغبار وما فيه من المواد المختلفة من أفريقية إلى أوربة مثلاً في مسافات أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام العليا (فلسطين) وهي تحمل رائحة ما له رائحة منها بالطبع، ولكن الغرابة في شم البشر لها من مسافة بعيدة كهذه، وبعض الحيوان من الوحوش والحشرات أقوى وأبعد شماً من الناس. والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ومن الناس من يميز بين روائح الأسرة الواحدة بل الإخوة منهم ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات وخواص عالم الغيب لا سنن المواد والأجسام فقد قيل ان قميص يوسف هذا كان لجده إبراهيم عليه السلام وان جبريل جاءه به من الجنة حين ألقي في النار فكانت

عليه برداً وسلاماً ، وأن الرائحة التي وجدها يعقوب هي رائحة الجنة، والمعجزات لا تنكر على أهل هذا البيت المرحوم المبارك عليهم السلام، ولكن أفرادها لا تثبت عند الناس إلا بدليل حسي أو بوحي إلهي، والوحي يقول حكاية عن يعقوب إنه وجد ريح يوسف لا ريح الجنة من قميصه وإنما ريح قميصه بالطبع ريح بدنه.

وقد ثبت عند الروحانيين أن للأرواح رائحة بل روائح مختلفة متفاوتة، فللعصاة الفاسقين روائح خبيثة تنتشر في الهواء فتدنسه على الذين يشمونها من طاهري الأرواح، كما تنتشر فيه ميكروبات أنفاس المرضى فتفسده، يعرف هذا أطباء الأجسام ويعرف ذاك أطباء الأرواح، قال بعضهم لمريده قم يا بني نستنشق نسيم الصباح قبل أن تدنسه أنفاس العصاة، وقد جهل هذا أبو العتاهية إذ قال:

أحـــــسن الله بنـــــا ... أن المعـــــاصي لا تفـــوح

فهي تفوح ولكن لا يدرك رائحتها إلا بعض الأفراد في بعض الأوقات، وكذلك الروائح الذكية، للأرواح الزكية، إنما تدرك في بعض الأحوال التي تغلب فيها الروحانية، أو توجه الإرادة، وقد يشمها غيرهم بتوجههم كما تواتر عن الشيخ علي العمري من معاصرينا وحكى الشيخ محي الدين في الفتوحات أن الشيخ عبد القادر الجيلي كان يعرف الرجال -أي درجاتهم في المعرفة- بالشم، فجاءه محمد بن قائد وكان يظن أن له درجة عالية في المعرفة، فشمه عبد القادر فأنكره وقال له لا أعرفك فعلت همة ابن قائد حتى التحق بالأفراد. وكان لشيخنا الأستاذ الإمام أخت روحانية فكانت تصعد إلى سطح دارهم في محلة نصر وتستنشق ريح أخيها وهو في الأزهر وتعرف في بعض الأحيان من رائحته أنه خرج من مصر قاصداً بلدهم فتخبر به فتصدق - أخبرني شيخنا بهذا وقلما كان يتحدث بمثله إلى أحد من أصحابه لأن رأيه أنه لا ينبغي التحدث بذلك إلا لأهله أو من لا يفتتن به، فإن من الناس من يكذب هذا وكل ما هو غير طبيعي معتاد من أمور الناس، ومنهم من يصدق كل ما يسمعه منه وأكثره دعاوي باطلة وخرافات تستغل وتستثمر، إذ يظن

مصدقوها أن أصحابها أولياء قديسون، وانهم يضرون وينفعون، فتفسد عقائدهم بجعلهم شركاء لله في التصرف في العالم بما هو مخالف للسنن العامة في الأسباب والمسببات.

فأنا أكتب هذا لتعليل آية الله لهذين النبيين عليهما السلام بشيء هو من سنة الله في بعض الروحانيين، مع اتقاء الكذب عليهم وعلى الله بدعوى خاصة بعالم الغيب لم يثبت بها النقل الصحيح، أعني قولهم ان القميص من الجنة الخ.

(فإن قيل) عهدناك مفسراً تجمع بين نصوص الوحي وقضايا العقل وتجارب العلم، فهل تقول إذن إن الآية تثبت أن للأرواح رائحة قد تشم من المسافات البعيدة كبعد أرض مصر من أرض كنعان في فلسطين وانه يجب علينا ديناً أن نؤمن بهذا؟ أم ماذا يجب علينا اعتماده في الآية.

(قلت) إن نص الآية أن يعقوب عليه السلام أخبر عن نفسه أنه وجد رائحة ولده يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، وهذا أمر وجداني نفسي لا يجب على كل مؤمن أن يعرف كنهه أو سببه، وإنما علينا أن نصدقه لأنه معصوم من الكذب، والله تعالى هو الذي حكاه عنه، وقد تبين صدقه بالفعل، وفي العبارة وجوه ونظريات تختلف باختلاف الأفكار والتربية والتعليم وهي أربع لأربع طوائف من المسلمين:

(١) إذا صور ذلك أحد المفكرين الذين تغلب عليهم الأفكار المادية بأنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى، كان مصدقاً له في أمر لا يعارضه العقل ولا ينقضه العلم، وإن كان هذا الشعور من النوع الذي يسمونه بالوهم، ولكنه يكون ميلاً عن التفويض إلى التأويل لحالة بشرية لا لصفة من صفات الله تعالى فتأويله لا خطر فيه.

(٢) إذا قال المؤمن بالظواهر من غير تعليل لها ولا تصوير لكيفيتها إنني أصدقه ولا يكلفني ديني أن أعرف كيف وجد تلك الرائحة لأن هذه المدارك الوجدانية

كثيرة يظهر منها في كل زمن ما يعجز العلماء الباحثون عن معرفة سببه فضلاً عن كنهه - لم يكن هذا القائل بعيداً في إيمانه هذا عن العقل ولا عن العلم، فلا خلاف بين العلماء بأن ما يجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه، وهو أقرب إلى الصواب ممن قبله لأنه مفوض لا متأول أو مؤول، على أن التأويل لصفات الله تعالى هو المخالف لهدي السلف ويليه أخبار عالم الغيب، لا التأويل لوجدان فيما يحتمل أن يكون من شئون البشر.

(٣) إذا ذهب اللغوي البياني إلى أن هذه الجملة استعارة أو كناية عبر بها نبي الله عن وجدانه وشعوره بقرب لقاء ابنه المحبوب حتى كأنه حاضر يشم رائحته لم يكن بعيداً - فإن بلغاء العرب يعبرون عن الشيء بلازمة ويشبهون المعاني النفسية بالمدركات الحسية وعكسه، ومنه: أننا نشم من الوجه الأول رائحة الاعتزال، وفي الثاني هذا كلام فيه رائحة الإخلاص، ومن أبلغ ما سمع في هذا الباب قول امرأة كعب بن الأشرف له: انني اسمع صوتاً يقطر منه الدم، أي يدل على قصد الاغتيال، وليس هذا من تأويل المتكلمين الذي هو خروج عن الظاهر لمانع يمنع منه.

(٤) إذا جنح الصوفي لقول الروحانيين إن وجدان هذه الريح كان من مدارك الروح الخاصة - لم يكن جانحاً إلى محال في نظر العقل، ولا ناكباً عن أصل قطعي من أصول العلم، فإن الذين يثبتون ذلك من كبار العلماء والصوفية أجدر بالثقة في النقل من الذين يثبتون في هذا العصر غرائب التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح وقراءة الأفكار ومراسلتها فهذا وسط بين المصدق المفوض في الخبر من غير تعليل، وبين الذي يذهب فيه إلى ما تقدم من تأويل، وأما من وقع له مثله من خصائص الأرواح فهو عنده من عين اليقين ودونه علم اليقين ولكنه خاص بصاحبه، إذ لا يدركه إلا مثله ولولا ذلك لعد من الحسيات العادية.

(فإن قيل) علمنا من هذا التفصيل أن المؤمن بالقرآن يجب عليه في هذه المسألة أن يعتقد أن يعقوب عليه السلام كان صادقاً فيما أخبر به عن وجدانه ولا يضره

ترجيح وجه من الوجوه الأربعة في فهمها، ويظهر أنك ترجح الأخير منها فما وجه هذا الترجيح؟

(قلت) المتبادر من الآية أن فيها خصوصية تنظم هذا الوجدان في سلك خوارق العادات، والأصل في مثل ذلك أن يفوض كنهه أو كيفيته إلى من وقع له من الأنبياء ما دام ممكناً، إلا من اتفق له ادراك جنس هذه الكيفية وعلم أنها من السنن الروحية كإبراء المسيح للأكمه والأبرص باذن الله لا كمعجزة العصا واليد لموسى عليهما السلام. وإني خبرت هذا الوجدان نفسه بنفسي وأدركت رائحة الأرواح الطيبة كأني أشمها بأنفي، ولولا أنها حالة خاصة لما قلت كأني ... ولقد كنت فيه دقيق البحث لئلا أكون واهماً أو مخدوعاً، وطالما ظننت فيما كان يقع مشتركاً بين جماعة أن الذي يعقد رابطة التوجه بينهم وبين الروح الذي يذكر اسم صاحبه -وهو كمستحضر الروح عند الإفرنج- أنه يلقي رائحة عطرية غريبة الزكاء بينهم حتى صرت أجد ذلك خالياً وكان يكون متقطعاً، وكنت أتردد قبل ذلك في أخبار من لا أتهمهم بالكذب فيها، ولا أرى بسط ذلك في التفسير وقد ذكرت شيئا منه في غيره (ككتاب المنار والأزهر) ولولا أن هذه المسائل الروحية قد كثر البحث عنها في هذا العهد عند علماء الغرب ومقلديهم لما تعرضت لها فراراً من فتون أكثر أهل بلادنا بل الشرق كله بكل ما هو مخالف للسنن العامة.

(فان قيل) ان الذين يعنون باستحضار الأرواح لم ينقل عنهم أنهم يشمون لها رائحة.

(قلت) لم يثبت عن هؤلاء إحضار روح عالية قدسية ولا رابطة بها، وإن الراجح عندي فيما يصح عندهم أنه من تمثيل الجن لهم لا من أرواح البشر، وأن الصوفية من المسلمين والهنود يتمثل لهم الجنسان، ولا يميز بينهما إلا الأنبياء وعلماء القرآن والسنة من الصالحين، وأن ما وجده يعقوب كان من توجه روح يوسف له عند ما أذن له أن يتعرف إليه بالروح قبل الجسد، وكان في وجدانه ريحه على علم من

الله تعالى لا من خيال الوهم ولا من ضلال الشيطان.

(فإن قيل) أليس من ثبت عنه أنه يرى الأرواح العالية ويشم ريحها ويسمع كلامها يكون ولياً صاحب كرامات يرجى نفعه ويخشى ضره بما هو وراء الأسباب والسنن العامة؟ أو يؤخذ كلامه في العلم والدين بالقبول والتسليم؟

(قلت) لا لا، إن من يقع له إدراك شيء مما ذكر إنما يقع له بسبب من الرياضة الخاصة، وقد يقع له الخطأ فيه والوهم، وقد يكون ما يجهله من جنسه أكثر مما يعلمه، دع ما ليس من جنسه كالعلوم التي لا تعرف إلا بالتلقين، ثم إنه لا يمكن أن يكون قادراً على نفع الناس أو ضرهم من غير طريق الأسباب العامة، ولا يوثق بعلمه في الدين إلا إذا كان مستمداً من الكتاب والسنة، وقد فصلنا هذا مراراً، فمثل الذي يقف على حقيقة روحية بتأثير الرياضة الخاصة في نفسه كمثل الذي يقف على بعض الحقائق من طريق البحث الحسي والعقلي فهم فيهما سواء، والولاية الشرعية إنما تكون بمعرفة كتاب الله وسنة رسوله والتزامهما بالعمل والأخلاق، مع الصدق والإخلاص، فتأمل هذه المسائل فإنها تحل لك كثيراً من المشاكل، وأنت حر في قبولها وردها.

٩٧ - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ أي قال أولاده وكانوا قد وصلوا في إثر البشير أو معه وإنما تقدمهم استعجالاً لنعمة البشارة وما تبعها من ارتداد البصر وغيره من السرور والنشاط والعافية: يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا الكثيرة التي اقترفناها من عقوقك وإيذاء أخينا أو أخوينا ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ متعمدين لهذه الخطيئة عاصين لله بها ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين، اعترفوا له بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف، ولكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه، واسمع ما كان جواب أبيهم:

٩٨ - ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ وعدهم باستغفار ربه لهم في المستقبل

المبهم وعلله بقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فكرر اسم الرب مضافاً إليه ووصفه بالمغفرة والرحمة الواسعة التي لا ينقطع منها رجاء المؤمن وإن أساء وظلم، فالفرق بين جوابه وجواب يوسف من وجوه اقتضتها الحكمة:

(الأول) أن حال يوسف معهم حال الحاكم القادر بل الملك القاهر مع المسيء إليه الضعيف لديه، الذي كبرت إساءته فاستحيا من طلب غفرانها بشفاعته ودعائه، فتبرع لهم به تأميناً لهم من خوف الانتقام وكان قادراً عليه، وتعجيلاً لهم بسرور الحياة الجديدة التي جعل الله أزمة نعمها بيديه، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة، والمثل الأعلى في حسن الأسوة، وما يجب أن يكون عليه الإخوة، وهو الجزاء بالإحسان على الإساءة، فهذه أفضل تربية وأكمل عبرة من الأخ الكامل لأخيه الناقص، ولو أخر هذا لكان تأخيره ضرباً من الانتقام منهم، إذ يكونون في وجل مما سيحل بهم.

(الثاني) أن حال أبيهم معهم حال المربي المرشد للمذنب الذي لا يخشى منه انتقاماً، وليس من حسن التربية أن يريهم أن ذنبهم هين لديه: وأنه ليس بينهم وبين شفاعته لهم عند الله بغفرانه إلا كلمة يقولونها بألسنتهم.

(الثالث) أن ذنبهم لم يكن موجهاً إليه بالذات وإنما كان موجهاً إلى يوسف وأخيه بالذات وأصابه هو بالعرض أو بالتبع واللزوم، ومن العدل أن يكون استغفاره لهم بعد العلم بحالهم معهما وعفوهما عنهم، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم.

(الرابع) أن هذا الذنب الكبير من الآثام التي طال عليها العهد ونشأ منها ما نشأ من الضرر لا تغفر بحسب شرع الله وسنته في تأثير الأعمال في الأنفس إلا بتوبة نصوح تطهر النفس من خبثها، فلا يحسن من المرشد الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه متصلاً به كأنها من اللمم، الذي يغفر ببادرة من الندم، فكان من حكمة هذا الأب الحكيم الرحيم أن يتمكث في الاستغفار لهم إلى

أجل مجهول ليعلم هو ذلك كله، وأن يعلمهم بأنه سوف يتوجه به إلى ربه الذي رباه بفضله ورحمته، وأعاد لفظ الرب مضافاً إليه لإشعارهم أن هذه الإضافة هي محل الرجاء في الاستجابة له أن يغفر خطاياهم، وإنما مغفرتها سترها ومحو ظلمتها من قلوبهم، بعد جعل توبتهم التي يشبه أن تكون اضطرارية توبة نصوحاً.

ولا ينافي هذه المعاني والحكم التي من الله علينا بفهمها وبيانها ما روي عن ابن مسعود موقوفاً وابن عباس موقوفاً ومرفوعاً من أنه أخرهم إلى السَّحَر لأن دعاء السَّحَر مستجاب، وفي رواية عن الثاني أنه أخرهم حتى تأتي ليلة الجمعة، بل يؤيده لأنه لم يتحر وقت الرجاء في الاستجابة وإن تأخر على اقتضاء رحمته الوالدية التعجيل إلا لأن الأمر جلل يتعارض فيه الخوف والرجاء. وقد ذكر العماد ابن كثير في تفسيره وتاريخه عن ابن جرير حديث ليلة الجمعة بسنده وقال: وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه، والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه ولا يصح شيء مما روي في دعاء يعقوب لهم وحده ولا مع يوسف وفيما أوحي إليه من استجابته تعالى له فيهم وجعلهم في ديوان الأنبياء.

خاتمة قصة يوسف عليه السلام في تأويل رؤياه

وما فهمه أبوه منها

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ
(٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ
ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

ههنا كلام يدل عليه السياق بالإجمال حذف إيجازاً على منهج القرآن في الاقتصار على ما فيه العبرة المرادة من الكلام، والمعنى أن إخوة يوسف بلغوا أباهم وسائر أهلهم مكانة يوسف في مصر وأنه هو الحاكم المفوض المستقل في أمرها (ديكتاتور) من قبل ملكها، وأنه محبوب مجمع على إجلاله فيها، وأنه يدعوهم كلهم

للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها، فرحلوا بقضهم وقضيضهم، وإنعامهم ودوابهم، حتى بلغوها واستقبلوا فيها بما يليق بمقامه.

٩٩ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ ظاهر العبارة أن أمه كانت لا تزال حية، وقال الذين أخذوا بقول اليهود إنها كانت قد ماتت: إن المراد بأبويه والده وخالته وقد كان أبوه تزوجها بعد أمه، وهذا جائز في اللغة إن صح الخبر ونحن لا ثقة لنا بصحته فنأخذ بظاهر الآية دون غيره كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله ومعنى إيوائهما إليه ضمهما إلى نفسه، وجعله إياهما معه في قصره وهو مأواه الخاص به ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ أي وقال لسائر أهله ومن معهم ادخلوا مصر قال ابن عباس معناه أقيموا فيها، إذ كانوا قد دخلوها فكان الأمر بدخولها عبارة عن الإذن باستيطانها، وقيل إن يوسف استقبلهم في الطريق احتفاء بهم فقال لهم ذلك في مكان الاستقبال أو عند الوصول الى العاصمة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ على أنفسكم ومواشيكم من المنع المعتاد للغرباء، أو من الجوع والهلاك فإن سني القحط لم تكن انتهت بعد، والتعليق بمشيئته تعالى هو شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقين، فيوسف في إسداء هذه النعمة إلى أهله يتبرأ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخره لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم.

وفي سفر التكوين أن يوسف عليه السلام عرف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم ببنيامين شقيقه، وأرسلهم لاستحضار أبيهم وأهلهم فجاؤا فأقطعهم أرض جاسان (وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدة من جوار أبو زعبل إلى البحر الأحمر) وأرسل إليهم العربات لتحملهم، وأحمال الغذاء والثياب على الحمير، فلما وصلوا إليها (٤٦ : ٢٩ شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقي اسرائيل أباه في جاسان فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى على عنقه طويلاً ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقرهم عليه لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة، ففعل ثم أخذ وفداً منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون)، فيظهر أن هذا اللقاء كان

هو الأول لهم، ثم إنه بعد لقاء فرعون قال لهم ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ الخ، ثم عاد بهم إلى قصره الخاص.

١٠٠ - ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي أصعد أبويه إلى السرير الذي كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك، فالعرش كرسي تدبير الملك، لا كل كرسي يجلس عليه الملك ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ أي وأهوى أبواه وإخوته إلى الأرض وخروا له سجداً، وكان السجود تحية الملوك والعظماء في عصرهم، حتى ان يعقوب سجد لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق وكان يخاف عاقبة ذلك التلاقي كما تراه في سفر التكوين. والسجود ليس عبادة بذاته وإنما جعله الدين عبادة فهو يكون عبادة بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي إن هذا السجود منكما ومن إخوتي الأحد عشر هو المآل الذي آلت إليه رؤياي التي رأيتها من قبل في صغري إذ ﴿رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ واقعاً ولم تكن حديث نفس من أضغاث الأحلام، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الأحد عشر، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر، ولا غرو فهذه الاسرة هي التي أراد الله بها حفظ ذرية إسحاق بن إبراهيم لنشر دين التوحيد في العالمين فكانت خير أسر البشر ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ ربي: يقال أحسن به وأحسن إليه ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ إلى عرش الملك، ذكر آخر المحن والفتن (البلاء والاختبار) المتصل بغاية النعم، ومن العجب أن يستشكل المفسرون عدم ذكر الإخراج من الجب هنا ويبحثوا له عن علة، وكان أول البلاء وقد خرج منه إلى الرق وبيعه بثمن بخس، وما اتصل به من تلك السلسلة الطويلة في الفتنة ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونتها ووحشيتها إلى الحضر حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق والتعاون على العلوم والصناعات، فالبدو خلاف الحضر ومعناه الاشتقاقي كل مكان يبدو كل ما يعن ويعرض فيه للأنظار: من بدا يبدو إذا

ظهر ظهوراً بيناً، يقال بدى إلى البادية بداوة (بالفتح والكسر) أي خرج فهو باد. ومنه ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾[الأحزاب:٢٠] وفيه تفضيل الحضارة على البداوة ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفسد ما بيننا من عاطفة الأخوة وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القربى بإغراء الحسد وتهييج الشر: هذا ما يدل عليه نزغ الشيطان فإن أصل النزغ نخس الرائض الفرس ونحوه بالمهماز لازعاجه للجري، يقال نزغه ونخسه ونسغه، والعامة تقول نغزه: بقلب نزغة بمعنى طعنة بما يهيجه ويزعجه. قال في الأساس: ومن المجاز نزغه الشيطان كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي، ونزغ بين الناس أفسد بينهم بالحث على الشر. اهـ. ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وآدب وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة: جعل ذلك النزغ المزعج إلى أجرأ الشر والإفساد كأنه كان مشتركاً بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما، وما كان إلا من جانب واحد، ثم قال ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي بالغ أقصى اللطف بعباده في التدبير والرفق في التسخير لتنفيذ ما يشاء في خلقه من الحكمة البالغة والوصول إلى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة، بحيث لا يشعر من لطف به عند وقوع الأسباب والوسائل بغايتها إلا عند وصوله إليها، فمن ذا الذي كان يخطر بباله أن الإلقاء في الجب وما أعقبه من الرق، وما تلا الرق من فتنة العشق، يفضي إلى السجن، وأن السجن ينتهي بالسيادة والملك؟ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما لكل قدر من عمل، وما لكل عمل من أجل، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في بلوغ مشئيته في ذلك كله كمال المصلحة في جزاء الذين أحسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين، فحمد يوسف لربه على لطفه في مشيئته، وعلمه وحكمته، من أجل الحمد والثناء، وناهيك بجعله مقدمة لما تلاه من الدعاء، وهو:

دعاء يوسف عليه السلام بحسن الخاتمة

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

تحول عليه السلام عن خطاب والده في بيان هذه العاقبة المثلى، في مقام الشكر لربه وحمده بما يناسب المقام من صفاته، إلى مناجاة ربه في الاعتراف بها والشكر عليها، وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا الرافعة إلى منتهى السعادة في الآخرة، لشعوره بأن ما خلقه له من الخير والنعمة قد تم كما فهمه أبوه، وكل شيء بلغ حده في هذه الحياة انتهى فقال:

١٠١ - ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أقصى ما ينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه، فجعلتني متصرفاً في ملك مصر العظيم بالفعل، وإن كان لغيري بالإسم والرسم، فكان تصرفي مُرضيا له ولقومه، لم يثر علي حسد حاسد ولا بغي باغ مما ذقت مرارته بمجرد تصور وقوعه على تقدير صدق الرؤيا الدالة عليه ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ الذي توليت ولا تزال تتولى أموري كلها ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ لا حول لي في شيء منها ولا قوة ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ لك إذ تتوفاني بما تتم لي وصية آبائي وأجدادي، وهي المشار إليها بقوله ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة] ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ منهم واحشرني معهم، فهذا الدعاء العظيم، بمعنى قوله تعالى في فاتحة القرآن ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام.

وقد تفضل العلامة السلفي الأستاذ محمد بهجت البيطار بإكمال تفسير هذه السورة وهذا ما تكرم به

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

الآية ١٠٢ إشارة إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وسورة يوسف عليه السلام قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن، وبلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه وكان مملوكاً، ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم «وهو القطر المصري» فأحسن الإدارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه، ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف، وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين، وإعجاز كتابه، والعبرة العامة بقصص الرسل عليه السلام[1].

١٠٢ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف رفعه الله عليهم، ومكن له في الأرض، وجعل له العاقبة والنصر، والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاينه، ولكنا ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعرفكه لنثبت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله، وتعلم أن من قبلك من رسل

(١) راجع تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٥٠.

الله لما صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعرف، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر، وأيدوا بالنصر، ومكنوا في البلاد، وغلبوا على من قصدوا من أعدائهم ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ أي اتفقت آراؤهم وصحت عزائمهم، أو عزموا عزماً إجماعياً لا تردد فيه، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب، وذلك مكرهم الذي قال تعالى ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، وقد تقدم الكلام على إجماع الأمر عند قوله تعالى ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ من سورة يونس، وعلى لفظ المكر أيضاً (ج ٣ ص ٣١٥ و ج ٨ ص ٣٣ من تفسير المنار) ثم إن من قرأ قصة هذا النبي الكريم في سفر التكوين، وهي في الفصل أو الإصحاح ٣٧ وما بعده، ثم تلاها في هذا الذكر الحكيم ظهر له الفرق واضحاً بين ما كان وحياً معجزاً وما كان كلاماً عادياً من قول البشر، أو من الرويات الإسرائيلية التي جعلها نقاد الحديث ورواته مضرب المثل في الكذب وردها المحققون من المفسرين كالحافظ ابن كثير، وكل ما ذكره القرآن من قصص الرسل فهو من أنباء الغيب الدالة على نبوة محمد ﷺ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عمران:٤٤] وقال سبحانه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤] إلى قوله ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص:٤٦] الآية، وقال ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص].

أما وقد أصاب بعض الكتب الإلهية ما أصابها من التحريف والتبديل – كالتوراة والانجيل– وحجبت أنوارها ومقاصدها عن العقول البشرية، فمن رحمة الله بعباده أن لا يدعهم يتخبطون في ديجور الضلالة، ويتيهون في أودية الجهالة، بل يجدد لهم وحيه، ويعيد على أسماعهم قوله، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه، بل يحفظه الله تعالى بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] وقال تعالى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران]. فالقرآن هو المعجزة العظمى التي تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من قول البشر، والدليل على ذلك أنه جاء على لسان أميٍّ لم يتعلم الكتابة، ولم يطالع الكتب، ولم يذاكر العلماء، أليس من البراهين القطعية على صدق نبوة محمد ﷺ أنه كان أمياً نشأ بين قوم أميين، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من الشؤون الغيبية دون أن يتعلم من بشر؟! بلى. وهو كما قال تعالى في سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها، ولما ادعى بعض المجاحدين أنه يعلمه بشر إذ رأوه يقف على قين «حداد» رومي بمكة رد الله دعواهم بقوله ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل] من ألحد فلان إذا مال عن الحق.

١٠٣ - ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقول جل ثناؤه وما أكثر مشركي قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا فيصدقوك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك، بمصدقيك ولا متبعيك(*). وذكر الفخر الرازي في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]. ويرى السيد الإمام أن الحكم في مثل هذه الآية عام، وأنه من دقة

(*) كذا قال ابن جرير والمراد من عاشوا منهم وماتوا على الشرك جحودا واستكبارا ومن فوائد هذا البيان إراحة قلب الرسول ﷺ منهم وتوجيه دعوته الى أولي البصيرة والاستعداد.

القرآن في الحكم على الأمم والشعوب إذ أنه يحكم على الكثير أو الأكثر بعدم الإيمان كما في الآية المتقدمة، وقال ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦] وكقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء] والقرآن لم يحكم على أمة بالضلال والفسق بنص عام يستغرق جميع الأفراد، بل تارة يعبر بالكثير وتارة بالأكثر، وإذا أطلق أداة العموم يستثني بمثل قوله في بني إسرائيل ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة] وقوله فيهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء] أو يحكم على البعض ابتداءاً كما قال فيهم وفي النصارى ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة] فقد أثبت لبعضهم الإيمان والاقتصاد أي الاعتدال في الدين، والهداية بالحق والعدل، وقال ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء:١٦٢] فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين، وأهل الإيمان المخلصين الذي يتحرون الحق هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم.

قال السيد الإمام قدس الله روحه: إن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم، والدقة التي نراها في القرآن لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ، فإذا نحن جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فإنهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الإسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع، ولكن وجد فينا «معشر المسلمين» من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الأمم من قبيل هجو غير المسلمين، وكل ما يحمده هو خاص بالمسلمين، حتى كأنه شعر لا يقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الإسلام ويحولون بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ، وفهم الحقائق. اهـ.

١٠٤ - ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ﴾ أي وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك يا رسول الله ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على هذا القرآن الذي أمرت أن تدعوهم إليه، وتذكرهم به أو على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان، وطاعة الرحمن، وكلاهما مفهوم من السياق وإن لم يذكر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله، أي ما تسألهم على ذلك مالاً ولا غيره من المنافع فيقولوا لك إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك لننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك، كما أن جميع من قبلك من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى، وذلك مصرح به في قصصهم من سورة هود وسورة الشعراء وغيرهما، وإذ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقاً عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعاً منك لأمر ربك، ونصيحة منك لهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا الذي أرسلك به ربك إلا تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة، لا لهم خاصة، وهو نص في عموم رسالته ﷺ.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

١٠٥ - ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (كَأَيِّن) بمعنى كم الخبرية وفيها لغتان فصيحتان، كائن بوزن فاعل، وبها قرأ ابن كثير، وكأين وبها قرأ الباقون. يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه سبحانه في السموات والأرض فيقول عز وجل كم من آية في السموات والارض لله وعبرة وحجة، وذلك كالشمس

والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض، يمرون عليها معرضين عنها لا يعتبرون فيها وفيها دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فدبرها.

قال السيد الإمام في تفسيره: قد يتفكر المرء في عجائب السموات والأرض وأسرار ما فيهما من الإتقان والإبداع والمنافع، الدالة على العلم المحيط، والحكمة البالغة، والنعمة السابغة، والقدرة التامة وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم، الذي خلق ذلك في أبدع نظام، وكم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر في باله صانعها اشتغالاً بها عنه، فالذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ذاهلون عن ذكره، يمتعون عقولهم بلذة العلم، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر، ومعرفة الله عز وجل. فالفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر، فيا طوبى لمن جمع بين الأمرين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة، فتلك النعمة التي لا تفضلها نعمة. (راجع ص ٢٩٩ ج ٤ من تفسير المنار).

قريء (والأرض) بالرفع على الإبتداء و﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ خبره، وقرأ السدي (والأرض) بالنصب، ويطؤون الأرض يمرون عليها، وفي مصحف عبد الله: والأرض يمشون عليها برفع الأرض وهي قراءة تفسير، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من العبر، ومن مباحث اللفظ أن (كأين) اسم مركب من كاف التشبيه وأي المنونة، ولذلك جاز الوقف عليها بالنون، لأن التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الأصلية، ولهذا رسم في المصحف نوناً، ومن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمه في الأصل وهو الحذف في الوقف، ومميزها مجرور بمن غالباً نحو قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ - وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ - وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾.

١٠٦ - ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال الإمام ابن جرير: وما يقرأ أكثر هؤلاء الذين وصف عز وجل صفتهم بقوله ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء إلا وهم به مشركون في عبادتهم الأوثان والأصنام واتخاذهم من دونه أرباباً، وزعمهم أن له ولداً، تعالى الله عما يقولون، وقال الحافظ ابن كثير: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم من خلق السموات ومن خلق والأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا الله وهم مشركون به، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ «قد، قد» أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا، وقال الله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

وقد سبق القول بأن القرآن يزن بالقسطاس المستقيم عقائد الناس وأعمالهم، ويميز بين أصناف موحديهم ومشركيهم، فلا يحكم عليهم في الدنيا حكماً واحداً عاماً، ولا يجعلهم في الآخرة مستوين في منازل الكرامة أو الندامة ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾؟ [ص]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾؟ [الجاثية]، وقد تقدم كلام السيد الإمام في دقة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب إذ يحكم على الكثير أو الأكثر بالشرك، أو بعدم الإيمان بالله تعالى وحده، ومن درس تاريخ الأمم السابقة واللاحقة، ونظر

في أحوال أهل الملل السماوية وغيرها، عرف كيف طرأ الشرك على الأمم، وسرى في عباداتهم سريان السم في الدسم «وما زال الشيطان -كما قال ابن القيم في إغاثة اللهفان الكبرى- يوحي إلى عباد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والاقسام على الله بها، مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه، فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعائه -أي الميت- وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر هذا عندهم، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم «قال» وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله، فإذا تقررذلك عندهم، نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزُّمَر] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤] وما ذكره هذا الإمام المحقق رحمه الله من التنقل في تعظيم الصالحين إلى عبادتهم هو حال أكثر الأمم من عرب وعجم، في كل زمان ومكان، طبقاً لما أخبر به الله في القرآن ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾.

أما التوسل الخلافي المشهور بين العلماء، المحصور في دعاء الله وحده مع التوسل إليه بصالحي عباده، كقولهم: اللهم بجاه فلان عندك، أو بحق فلان، أو بحرمته، أسألك أن تفعل كذا فهو يتوقف على السماع والنقل بمثل هذه الألفاظ، ولم

ينقل عن الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، وقد يظن بعض الناس أن دعاة التوحيد وحماته ينكرون حرمة الرسل أو جاههم أو كرامتهم على ربهم، في حياتهم أو بعد مماتهم. والجواب أن هذه تهمة باطلة وظن آثم ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجُرات:١٢] كيف وجاه الرسل صلوات الله عليهم ثابت بالقرآن، قال تعالى في حق موسى عليه السلام ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب] وقال في حق عيسى عليه السلام ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥] فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بفخر هذا العالم، وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ؟ لا شك أن جاهه أعظم، ولكن جاه المخلوق عند المخلوق ليس كجاهه عند الخالق، فإنه تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه قال تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقال سبحانه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه ولغير من ارتضاه. وأما ما أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم من حديث فاطمة بنت أسد، والشاهد منه «بحق نبيك والانبياء الذين من قبلي» وما رواه أحمد وابن ماجة من حديث أبي سعيد الخدري في «من خرج من بيته الى الصلاة فقال: اللهم بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي إليك» الحديث، فهذان الحديثان على كونهما متكلماً فيهما ليس فيهما إلا توسل بحق النبيين فحسب، وحقهم هو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة، وما خصهم به من الخصائص والمزايا، كاجتبائهم واصطفائهم، وما وعدهم به من النصر والتمكين، والعز والتأييد، وقبول شفاعتهم إذا شفعوا بعد الإذن والرضا، فهذا توسل إليه تعالى بأفعاله، وأفعاله سبحانه ليست من مخلوقاته، بل هي من مقتضى أسمائه وصفاته.

فقد علمت من هذا أنه ليس الخلاف في جاه الرسل الثابت لهم عند ربهم، وإنما الخلاف في فهم المراد من التوسل بالجاه والحرمة والحق، وهل جعله الله سبباً شرعياً في إجابة الدعوات؟ فإن كل المراد منه معنى يرجع إلى أفعاله تعالى وصفاته؟

كاصطفائهم واجتبائهم ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة فبه نقول.

بيد أن ههنا مسألة مهمة، وهي أن حقوق الرسل عليهم السلام وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء، ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله، فإذا قال السائل أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي لي حاجتي، فمعنى ذلك: اقض حاجتي لكون فلان صالحاً، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه؟ وإذا قلت بجاه فلان اغفر لي، كان المعنى أطلب المغفرة لكون فلان ذا جاه، وأي ملازمة بين جاهه ومغفرة ذنبك؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا بعد مماته ولا هو محل نزاع، ولكنه ليس من عملك، الذي تستفيد أنت منه وتستحق الجزاء عليه، وإنما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل] وقال تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم]، فلو كان التوسل بصلاح الصالحين وعمل العاملين، يفيد المتوسلين الجاهلين العاطلين عن العمل في دينهم أو دنياهم، لهان الأمر علينا معشر المسلمين، ولنلنا كل خير من ذلك، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً: اللهم حقق آمالنا، وأنلنا وحدتنا واستقلالنا، بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك، وابتغاء مرضاتك، ففتحت لهم فتحاً مبيناً، ونصرتهم نصراً عزيزاً، ربنا إننا نتوسل إليك بفتوحهم وعلومهم وأعمالهم، أن تهب لنا من الملك والسلطان، والعلم والعرفان، والحضارة والعمران، مثل ما وهبت لهم، فهل تفيدنا هذه التوسلات الدنيوية، بجاه أسلافنا وما ملكوا من قوة وثروة، وسعة سلطان، واستبحار عمران، ونحن قد تداعت علينا الأمم، فجعلتنا مغنماً أو نهباً مقسماً؟! كلا إنما يجب علينا أن نعمل كما عملوا لنكون لهم من الوارثين، وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي، فمن وفقه الله وألهمه رشده يتقي عقاب الآخرة بما شرعه الله لاتقائه من التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض

بعضها بعضاً، ولا يبطل بعضها بعضاً. هذا وان القرآن الكريم وكتب السنة طافي بالأدعية والأذكار التي تعبدنا الله بها، وقد جمعت في كتب خاصة، فليت مشايخ الطرق يرشدون مريديهم إليها، ويقصرون أنفسهم ومريديهم عليها، فهي هي المنقذة من الضلال، والموصلة إلى ذي العزة والجلال، لا تلك التوسلات المبتدعة التي يشرعونها ويدعون الناس إليها، ويضللون من ينكرها عليهم، وهم يعلمون أن الله تعالى قد أكمل دينه، وأتم نعمته ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟

١٠٧ - ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول عز من قائل: أفأمن هؤلاء الذين لا يقرون بأن الله هو ربهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره، أن تأتيهم غاشية من عذاب الله تغشاهم من عقوبة الله، وعذاب الله على شركهم بالله، أو تأتيهم القيامة فجأة، وهم مقيمون على شركهم، وكفرهم بربهم، فيخلدهم الله عز وجل في ناره، وهم لا يدرون بمجيئها، وقيامها «ابن جرير» ومعنى ﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي نائبة تغشاهم وتجللهم، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية] كناية عن القيامة وجمعها غواش، وغشي «كرضي» فلان أصحابه إذا أتاهم، وغشي الشيءُ الشيءَ إذا لحقه وغطاه، ومنه في التنزيل غشيان الموج واليم والدخان والعذاب للناس، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾؟ [النحل] وقوله ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾؟ [الأعراف]. وقد فسر السيد الإمام هذه الآيات الأربع من سورة الأعراف وقال

إنها إنذار لأمة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بها نزل بغيرها، كما ترشد إليه الرابعة منها «قال» رحمه الله: قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم، وزال ملكهم، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم إذ بين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب بعض الأفراد، وسننه فيها لا تتبدل ولا تتحول، ولكنهم قصروا أولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق، ثم في وعظ الأمة بها، وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها، وترك الاتعاظ بتدبرها، ومن يقرأ شيئاً من تفسيرها فانما يُعنى بإعرابها، والبحث في ألفاظها، أو جدل المذاهب فيها، ثم إنهم يجعلون معانيها خاصة بالكافرين، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون أنفسهم مسلمين، « قال» وطالما أنكر علينا بعض أدعياء العلم والدين، أننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار شاملة لأهل الإسلام والإيمان، مأفوكين عن تدبرها المراد منها، جاهلين للسنن العامة فيها، وكذلك كان يقول أهل الكتاب من قبلهم، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحابي الأمم والأقوام لأجل رسلهم، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم، وقد راجت هذه العقائد في المسلمين، وكانت تجارة «باسم الدين» للدجالين الضالين المضلين﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ اهـ.

ومعنى إتيان الساعة بغتة، مجيئها فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا إشعار ولا إنذار، وقد تكرر هذا القول في التنزيل، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين، واللفظ للبخاري «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة ذات الدر) فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه (من ألاطه: طلا حجارته بالطين أو غيره كالجص ليمسك الماء ويحفظه) فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها» والمعنى أنها تبغت الناس وهم

منهمكون في أمور معايشهم المعتادة فلا يشعرون إلا وقد أتتهم، وقد قال تعالى في سورة الأعراف ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ قال السيد الإمام في تفسيرها مبيناً الحكمة في إبهام أمر الساعة على الناس: وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد -أي وإن كان نبياً- فهو تعالى قد رباه ليكون منذراً ومبشراً، لا للإخبار عن الأمور بأعيانها وأوقاتها، والإنذار إنما يناط بالإعلام بالساعة وأهوالها، والنار وسلاسلها وأغلالها، ولا تتم الفائدة منه إلا بابهام وقتها، ليخشى أهل كل زمن إتيانها فيه، والإعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة، ثم قال: فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق، ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال، والقيل والقال. اهـ كلام السيد.

«قلت» ومن أراد استيفاء المباحث على الساعة أو القيامة للأفراد وللأمة أو الدولة والعالم، وما ورد في قرب الساعة، والروايات في عمر الدنيا ونقدها، وتفنيد كلام السيوطي في عمر الدنيا، وتخطئة المحققين له، وكلام الإمام ابن حزم في جهل من حدده، ثم تحقيق ما ورد في أشراط الساعة وعلاماتها والبحث في رواياتها، وعللها وإشكالاتها وتمييز ما صح من غيره فليراجع تفسير المنار، فقد أطال السيد الإمام النفس في ذلك كله، فراجعه فإنك لا تظفر في غير تفسيره بمثله (ج ٩ ص ٤٦١ - ٥٠٧).

١٠٨ - ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان ﴿سَبِيلِىٓ﴾ سنتي ومنهاجي، وقال مقاتل: ديني، والسبيل كالطريق يذكر ويؤنث

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يقين، والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل، أدعو ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أي ويدعو إليه أيضاً من اتبعني وآمن بي وصدقني ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني، تعالى الله عن شركهم علواً كبيراً ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]. دل قوله تعالى ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على مزية هذا الدين الحنيف، ونهجه الذي انفرد به، وهو أنه لم يطلب التسليم لمجرد الإدعاء بحكايته، ولكنه ادعى وبرهن، وذكر مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الإحكام والإتقان على انظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه (رسالة التوحيد).

نقل ناصر السنة البغوي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه فسر قوله تعالى ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ قال: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن. وقال عبد الله بن مسعود: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم.

«أقول» بعد أن سمعت قول هذين الصحابيين الجليلين، تعالى فانظر ما قاله في تفسير هذه الآية أشهر المفسرين المتكلمين الفخر الرازي رحمه الله فقد فسرها تفسيراً جعل به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه من محترفي صناعة الكلام المبتدع،

والمشتغلين بعلم الأصول المستنبط المكتسب، فاقرأ وتعجب (قال) في (ج ٥ تفسير الرازي ص ١٧٢) وهذه الآية ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول، حرفة الأنبياء عليهم السلام، وأن الله ما بعثهم للخلق إلا لأجلها. «وأقول» لقد علم بالضرورة أن الأنبياء عليهم السلام قد أوحي إليهم أنما الله إله واحد، وقامت الآيات الحسية والعقلية في الآفاق وفي الأنفس على أنه لا رب غيره ولا معبود سواه، وجاءت الكتب الإلهية كلها ناطقة بذلك، وقد عرف بالاضطرار من دين الإسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم خير الأمة لم يسلكوا طريق هؤلاء المتكلمين الذين أوجبوا النظر فيما ابتدعوه، ولم يأخذوا معرفة الله سبحانه وتوحيده مما نصبه فلاسفة اليونان ومن دانوا ببدعتهم، مما سموه الأدلة العقلية، والموازين الكلامية، زاعمين أن قوانين المنطق هي القواطع العقلية، وأن ما جاءت به الكتب، وأخبرت به الرسل من صفات الله معدود من تشابه الكلام، مصروف عن حقيقته. ولا شك أن أصحاب النبي ﷺ الذين هم صفوة هذه الأمة وخيارها، المتبعون للرسول علماً وعملاً، كانوا يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والبراهين والأدلة التي بعث الله بها رسوله ﷺ وإلى تدبر القرآن وما فيه من البيان، والقرآن قوله سبحانه الذي جاء فيه ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؟ [المؤمنون] فأين كانت هذه المذاهب الكلامية الجدلية، التي تضاد صريح اللغة وفقه القرآن وأساليب البيان، وحسبك من انحرافها أن جمهور المتكلمين من أهلها قد فسروا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي ركن الدين وأساسه الأعظم بغير ما تدل عليه لغة وشرعاً، ومنهم الإمام الرازي في مواضع من تفسيره: فهو يفسر لفظ (الإله) بمعنى الخالق المدبر كما تجده في تفسير قوله تعالى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨] ولم تكن العرب تعتقد أن آلهتها قد خلقت شيئا من العالم، أو تدبر أمراً من أموره، بل كانوا يعرفون ويعترفون بأن الله تعالى وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور كما ثبت ذلك بنص القرآن العظيم قال

تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقال عزت كلمته ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾؟ [يونس].

أما آلهتهم فقد كانوا يتقربون بعبادتهم إلى فاطر السموات والأرض كما أخبر تعالى عنهم بقوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وقال ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُّمَر:٣] فجاءت كلمة التوحيد تلقف ما يأفكون، وتنفي ما يثبتون، فكلمة «لا إله» نفي لكل معبود في الوجود، وإبطال لعبادته، وكلمة «إلا الله» إثبات لعبادة المعبود بحق وحده ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢] إذاً فمعنى كلمة «إله» في لغة العرب والقرآن هو المعبود بحق أو بغير حق ولفظ الجلالة «الله» علم على المعبود بحق وهو الله عز وجل وحده، وبين تعالى أن من تفرد بالإيجاد والإمداد، هو الذي يستحق العبادة دون غيره، وأقام عليهم الحجة بما أقروه من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الألوهية.

بعد أن فرغت من بيان ما في تلك العجيبة الجريئة التي جاءت في تفسير الفخر عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أوجه نظر القارىء الكريم إلى ما كتبه السيد الإمام عليه الرحمة والرضوان في الإمام الرازي وتفسيره الكبير وعلماء الكلام ومذاهبهم المتناقضة، ثم رجوعهم عنها، وهي القول الفصل في الموضوع، وإني ألخصها بما يلي: وأدع استيفاءها بطولها لمن يحب وهي في (ج ١١ ص ٣٧٣ - ٣٨٠) من تفسير المنار قال رحمه الله تحت عنوان (استطراد في المتكلمين وتفسير إمامهم الرازي) اعلم أن الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والأصوليين في عصره، وإن علماء النظر اعترفوا له بهذه الإمامة من بعده، ولكنه كان من أقلهم حظاً من

علم السنة وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين، بل وصفه الحافظ الذهبي إمام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع به عنه لأنه من أئمة الأشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا العدول. أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، من الفلاسفة والمتكلمين» ما ينبئك بحقيقته عند المحققين وهو:

محصل في أصول الدين حاصله   من بعد تحصيله علم بلا دين
رأس الغواية في العقل السقيم فما   فيه فأكثره وحي الشياطين

ولشيخ الإسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض[1] كتابه (أساس التقديس) ثم قال: هذا وإن أكثر النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في الإيمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن حجر في شرحه للبخاري (من كتاب التوحيد) ومن قبله والده الإمام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبياً في هذا العصر لكان الجويني، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضاً، رحمهم الله ورحمنا، وعفا عنهم وعنا، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه إلى مذهب

(١) أقول: هذا الكتاب من نفائس المخطوطات الظاهرية بدمشق، وهو يقع في بضع مجلدات، ومعظمه مفرق في مجلدات «الكواكب الدراري في تبويب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري» للإمام ابن عروة الدمشقي الحنبلي الذي رتب المسند على أبواب البخاري وشرحه في مائة وعشرين مجلداً ضخماً، قال السخاوي في الضوء اللامع: وطريقته فيه أنه إذا جاء لحديث الإفك مثلاً يأخذ نسخة من شرحه للقاضي عياض فيضعها بتمامها، وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم أو شيخه ابن تيمية أو غيرهما وضعه بتمامه، ويستوفي ذاك الباب من المغني لابن قدامة ونحوه. اهـ. وفي دار الكتب الظاهرية منه الآن عشرات من المجلدات متفرقة، تبحث في التفسير والحديث والسيرة والأصول والتاريخ والأدب وغير ذلك، وكان ابن عروة زاهداً عابداً قانتاً لا يقبل لأحد شيئاً ولا يأكل إلا من كسب يده. توفي سنة ٨٣٧ رحمه الله وإيانا. وكتبه محمد بهجت البيطار

السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين، وإنما هو لحراسة العقيدة كالحرس للحاج، «وأقول» إنما راجت كتبه في عصرهم لأنها وضعت للرد على ملاحدتهم ومبتدعيهم، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعيه كما بيناه مراراً وأما تلقين المسلمين أنفسهم للعقائد وقواعد الاسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الأحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين، فتجعل أصلاً ترد إليها آيات القرآن المبين، إيثارا لبيانهم على بيانه.

الدعوة الى الله على بصيرة

كان السيد الإمام رحمه الله تعالى أنشأ بمصر جمعية ومدرسة دعاها باسم (دار الدعوة والإرشاد) تحقيقاً للعمل بهذه الآية الكريمة وهي الدعوة إلى الله على بصيرة، ولتجديد شباب الأمة وإعادة سلطان الإسلام، وتربية طائفة من المعلمين لذلك كله يكونون ذكرى للسلف الصالح علماً وعملاً واعتقاداً، مزودين بقوى هذا العصر وحقائقه، وسعة علومه ومعارفه، مجددين هداية القرآن العليا، محيين السنة النبوية المثلى، هدفهم الأسمى إصلاح آخر هذه الأمة بما أصلح أولها وقد كان من سوء حظ المسلمين أن قضت الحرب العامة على هذه المؤسسة الوحيدة من نوعها.

ولكن نظام المدرسة مطبوع، وفيه بيان العلوم والفنون التي تدرس في قسم الدعاة والمرشدين، والطريقة الإصلاحية لتدريسها، وفق الله الأمة لتجديد هذا المعهد الديني، وإعادة العصور الذهبية للإسلام.

١٠٩ - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ هو رد لقولهم ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فُصِّلَت:١٤] أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وهذا القول عن ابن عباس يؤيده قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠] الآية وقوله تعالى ﴿ وَمَا

﴿جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩] الآية.

قال السيد الإمام: هذه الشبهة شبهة كونهم بشراً، قد ذكرت في سور كثيرة عند الكلام على رسالة الرسل كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف والأنبياء والشعراء ويس والتغابن، وذكرت في بعض السور بلفظ رجل بدل بشر كقوله تعالى في أول سورة يونس ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس:٢] وهذا في نبينا ﷺ ومثله عن أول من كذبوا الرسل وهم قوم نوح قال تعالى في قصته من سورة الأعراف ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾. [الأعراف:٦٣] ويليه حكاية مثل ذلك عن هود مع قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف].

هذه الشبهة على الرسالة وهي كون الرسول بشراً مثل المُرسَل إليهم لم تدعم بحجة، ولم تؤيد ببرهان، بل هي باطلة بالبداهة، لأنها تقييد لمشيئة المُرْسِل وقدرته وهو الفعال لما يريد ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وقد كان أولئك المشتبهون مؤمنين بقدرته التامة، ومشيئته العامة، بل كون الرسول إلى البشر بشراً مثلهم يفهمون أقواله ويتأسون بأفعاله هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة وطبيعة الاجتماع ولكن الأوهام الجهلية تقلب الحقائق، وتعكس القضايا. اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة، أي إن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحي تشريع، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب وبقوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] الآية وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله

تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران] وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه. اهـ.

«أقول»: وإنما كان وحي التشريع خاصاً بالرجال دون النساء، لأن للمرأة من نظامها الفطري واختصاصها المنزلي، ما يعوقها عن توفية الرسالة الإلهية حقها والقيام حق القيام بتلقيها وتبليغها، ومن أكبر موانعها الفطرية الحمل والولادة وحضانة الأطفال وتربيتهم وتدبير المنزل وإدارة شئونه، وقد اقتضت طبيعة الأنوثة أن تسقط الشريعة عن النساء الصلاة زمن الحيض والنفاس، ووجوب الجماعة والجمعة والعيدين، وخصت الرجال بالقتال وحماية الديار والدفاع عن الحق بالقوة، وحكمة هذا التخصيص وعلته طبيعة كل من الذكر والأنثى، ونظام فطرته التي فطره الله عليها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] على أن القيام بأعباء الرسالة فوق ذلك كله، والله يصطفي من خلقه ويختص برحمته من يشاء فيجعله من أنبيائه ورسله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

وقوله تعالى ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي من أهل الأمصار دون أهل البوادي، والقرى جمع قرية وهي الموضع الذي فيه الناس، والمراد بالقرى المدن الجامعة لعظماء الأمة ورؤسائها، وإنما كان الرسل يبعثون من أهل المدن الكبرى وفيهم لأن سائر البلدان والبوادي تتبعهم إذا آمنوا ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم بالله، المكذبون رسوله من قريش في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى اليمن والشام -رحلتهم في الشتاء

والصيف- فينظروا فيها وطئوا من البلاد إلى وقائعنا فيمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا، بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم آياتنا، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبى تكذيبهم فيعتبروا ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ هذا خبر مؤكد بلام القسم يفيد أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة. وأن تلك الدار للذين اتقو الشرك والشرور المحرمة، وآمنوا بالرسل واتبعوهم، خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين للرسل، الذين لا حظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قِصَر مدته، وعدم فائدته -دع ما يستلزمه من المعاصي المفضية إلى عذاب الآخرة- ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته، وفي دوامه وثباته، وفي كونه إيجابياً لا سلبياً، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض، ولا إزالة أقذار، فما القول بنعيمها الروحاني، من لقاء الله ورضوانه، وكمال معرفته المعبر عنه برؤيته؟ أتغفلون فلا تعقلون هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة؟ أما لو عقلتم لآمنتم[1]، وإضافة «الدار» إلى الآخرة، من إضافة الصفة للموصوف لمغايرتها له، ولا نزاع بين النحاة في وقوع مثل هذا في الكلام العربي، وحسبك وروده في الكتاب العزيز، ومثله قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة] ويقال: أتيتك عام الأول ويوم الخميس. قريء ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء والياء.

ثم بَيَّنَ تعالى: تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام أن العاقبة لرسله كما قال تعالى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١] وقال ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٥١] وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون في تكذيبهم، فقال سبحانه:

---

(١) انظر تفسير المنار ج ٧ ص ٣٦٤.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

١١٠ - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قال الإمام ابن جرير في وجه اتصال الآية بما سبقها: يقول تعالى ذكره ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ فدعوا من أرسلنا إليهم فكذبوهم وردوا ما أتوا به من عند الله، حتى إذا استيأس الرسل الذين أرسلناهم إليهم منهم، أن يؤمنوا بالله ويصدقوهم فيما أتوهم به من عند الله، وظن الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذبة، أن الرسل الذين أرسلناهم إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم، جاءهم نصرنا. اهـ.

وتلك سنته تعالى في الأقوام، يرسل إليهم رسله بالبينات، ويؤيدهم بالمعجزات حتى إذا أعرضوا عن الهداية، وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم، واشتد البلاء على الرسل صلوات الله عليهم حتى يستشعروا القنوط من تمادي التكذيب، وتراخي النصر، جاءهم نصر الله فجأة، وأخذ المكذبين العذاب بغتة، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عاداً قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والعذاب الذي هلك به النمرود الذي حاول إحراق إبراهيم، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة] والمراد تذكير قوم النبي ﷺ بأن سنته تعالى في عباده واحدة، لا ظلم فيها

ولا محاباة، وأنهم إن لم يتوبوا وينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل، كما قال في سورة القمر ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر] وقد نصر الله نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿كُذِبُوا﴾ (بالتخفيف وكسر الذال) والباقون بالتشديد، قال الإمام الرازي: ومعنى التخفيف من وجهين: (أحدهما) أن الظن واقع بالقوم، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم، فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر، فإن قيل: لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم، فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم؟ قلنا ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم، وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى في قوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل، والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان. (والوجه الثاني) أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا: وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنه (قالوا) وإنما كان ذلك لأجل ضعف البشرية، إلا أنه بعيد، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الإيمان، فكيف يجوز مثله على الرسل؟

وأما قراءة التشديد ففيها وجهان: (الأول) أن الظن بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم (معه) الإيمان بعد ذلك، فحينئذ دعوا عليهم، فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة] أي يتيقنون ذلك. (والثاني) أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن

عائشة رضي الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: وظن الرسل أنهم كذبوا لأنهم كانوا بشراً، ألا ترى إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ [البقرة:٢١٤] قال: فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فأنكرته وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ شيئاً إلا وقد علم أنه سيوفيه، ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم. وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة. اهـ.

«أقول» وقد أخرجه البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وأما ما روي عن ابن عباس ومثله عن ابن مسعود رضي الله عنهما من أن المعنى أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا فيها وعدوا فهو مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فقد روى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعمران بن الحارث السلمي، وعبد الرحمن بن معاوية، وعلي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس بمثله. وأما ابن مسعود فقد روى ابن جرير عنه بسنده إليه قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا «بالتخفيف».

فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور، وزيف

القول الآخر بالكلية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه[1]. ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم، لأنهم بحسب مشيئته، وسنته تعالى في عباده وحكمته، هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم، بما يختارون من التوحيد على الشرك، ومن الخير على الشر. قريء فننجي «بالتخفيف والتشديد» من أنجاه ونجاه و﴿فَنُجِّيَ﴾ على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن (فنجا)، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولا يمنع عقابنا وبطشنا بمن بطشنا به من أهل الكفر بنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده، وتلك سنة الله في رسله مع أمم الدعوة، يبلغونهم الرسالة، ويقيمون عليهم الحجة، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب فيؤمن المهتدون ويصر المعاندون فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين.

قال السيد الإمام: إصابة الناس في المكاره والشدائد عقاباً لهم على جرائم ارتكبوها قد يكون رحمة بهم، وقد يكون عبرة وموعظة لغيرهم، وهذا من سنن الله تعالى المطردة في الأقوام والأمم، وإن لم يطرد في الأفراد لقصر أعمارهم، ولذلك قال ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يقل عن المجرمين.

ثم ختم سبحانه هذه القصة والسورة بقوله:

١١١ - ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تقدم تفسير القصص في هذه السورة، وأنه مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها، لأنه من قص الأثر أو اقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الأخبار والأحاديث، والمراد من ﴿قَصَصِهِمْ﴾ قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته، ومنهم من قال قصص الرسل، وأيده بقراءة (قصصهم) بكسر القاف، وكلا الوجهين صحيح،

---

(١) انظر ابن كثير في تفسير الآية.

والاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والمراد منه التأمل والتفكر. قال الراغب: وأصل العبر تجاوز من حال إلى حال، فأما العبور فيختص بتجاوز الماء إما بسباحة أو في سفينة أو على بعير أو قنطرة، ومنه عبر النهر لجانبه حيث يعبر إليه أو منه، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد وضعه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن بِيعَ بَيْع العبد بالثمن الخسيس، والتمكين له في الأرض من بعد ذلك الأسار والحبس الطويل، وإعزازه على من بغاه سوءاً من اخوته، وجمع شمله بأبويه وبهم على ما أحب بعد المدة الطويلة، والمجيء بهم من الشقة النائية البعيدة. إن الذي قدر على ذلك كله أيها الناس لقادر على إعزاز محمد ﷺ، وإعلاء كلمته، وإظهار دينه، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال، والأتباع والأصحاب، وإن مرت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والحوادث، ثم إنه تعالى ذكر هذه القصة -كما ذكر قصص الرسل مع أقوامهم- لما فيها من العبرة، والدلالة على الحكمة والقدرة، وإنما قال ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم أصحاب العقول الراجحة، لأن أهل البصيرة والروية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، وأما الاغرار الغافلون، والظالمون المعاندون، فلا يمرنون عقولهم على الاستقلال في النظر، والاعتبار بما جرى على الأفراد والأمم، فلا يفيدهم النصح والتذكير، ولا سوء العاقبة والمصير. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ما كان هذا القرآن أو القصص حديثاً يختلق ويكذب، لأن هذا النوع من القصص الذي أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار، ممن لم يطالع الكتب، ولم يخالط العلماء دليل ظاهر، وبرهان قاهر، على أنه بطريق الوحي والتنزيل، ولهذا قال ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب السماوية، التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور، أي تصديق ما

عندهم من الحق في هاتيك الكتب، لا كل الذي عندهم، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم، مما جاء القرآن لإزالته ومحوه ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله، فتنبه لذلك ولا تكن من الغافلين. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وتنزهه عن مماثلة مخلوقاته، وفيه العظات والعبر بقصص الرسل مع أقوامهم وسائر ما بالعباد إليه حاجة.

قال السيد الإمام رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف] أي ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل البيان، وهو القرآن، فصلنا آياته تفصيلاً على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل، وتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة، وسبب رحمة خاصة، لقوم يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به إذا لم يهتدوا به، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلاً لرحمته، وقال (التفصيل) عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولاً بعضها من بعض، بما يزيل الاشتباه واختلاط بعضها ببعض في الأفهام، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته، ولا التطويل ببيان جميع فروعه، ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر ديننا. أسهب حيث ينبغي الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز. فالقرآن فيه تفصيل للحق في العقائد، بالحجج والدلائل، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام، بما تصلح به أمور البشر، وشؤون الاجتماع. ﴿وَهُدًى﴾ كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته، فإنه يجذبه ببيانه وبلاغته إلى الحق الذي قرره، وعمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ عامة للمؤمنين الذين

تنتشر فيهم هدايته، وتنفذ فيهم شريعته، فهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة جميعاً. وأما الخاضعون لأحكام الشريعة من غير المؤمنين به فإنهم يكونون آمنين في ظلها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم، مساوين للمؤمنين بها في حقوقهم ومعاملاتهم، عائشين في وسط خال من الفواحش والمنكرات، التي تفسد الأخلاق، وتولد الأمراض[1].

أقول: إنهم يشاركون المؤمنين في هذه العيشة الراضية، والحياة الخالية من كل شائبة، فليت دعاة النصرانية المبشرين، الذين يسعون لتنصير مسلمي الأرض، ويبغون زوال القرآن من الوجود، ليتهم يعلمون أن أمة القرآن التي دانت به، وأذعنت لحكمه، ولم تلتفت إلى شيء غيره، قد آمنت عن طريقه وحده بكل ما قص عليها من حال الرسل مع أقوامهم، وما فصل لها من معجزاتهم وآياتهم، وأن هذا القرآن الذي تولى الله حفظه، وجعله تبياناً لكل شيء ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لو زال لا قدر الله تعالى من الأرض، فإن أمته لا تؤمن لأحد بعده بنبوة ولا رسالة، ولا تعتقد بنزول وحي من السماء، على أحد من الأنبياء، فإيمانهم بالقرآن إيمان بسائر كتب الله، وتصديقهم بخاتم النبيين تصديق لسائر رسل الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

يقول الضعيف محمد بهجت ابن الشيخ محمد بهاء الدين آل البيطار الدمشقي هذا آخر تتمة تفسير السيد الإمام، لسورة يوسف عليه السلام وقد وردْت فيها على زاخر بحره وعلقت عليها من نفائس لآليه ودره، فرحم الله السيد الإمام، وجدد بمناره وتفسيره عهد العروبة والإسلام، وكُتب في ذي الحجة وتم في المحرم الحرام سنة ١٣٥٥ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر ص ٢٠٥ و ٤٤١ ج ٨ من تفسير المنار.

فهرس كتاب تفسير سورة يوسف عليه السلام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

صدر حديثاً للسيد الإمام محمد رشيد رضا:

١ - حقيقة الصيام وحِكَمِه وفوائده

و إثبات شهر رمضان وبحث العمل فيه وفي غيره بالحساب

٢ - مناسك الحج أحكامه وحِكَمِه

٣ - مختصر ذكرى المولد النبوي

٤ - A Brief Account of the Life of Prophet Muhammad

In Commemoration of His Birthday

٥ - يُسْر الإسلام وأصول التشريع العام

في نهي الله ورسوله عن كثرة السؤال

٦ - الربا والمعاملات في الإسلام

٧ - نداء للجنس اللطيف

في حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام

٨ - المنار والأزهر

٩ - تفسير سورة يوسف عليه السلام

يصدر قريباً إن شاء الله:

محاورات المصلح والمقلد والوحدة الإسلامية

Tafsir

Surat Yusuf

Peace Be Upon Him

Mohamed Rashid Reda

Al-Manar Proprietor

(1865-1935)

Dar Almanar

6012 Beard Avenue North
Minneapolis, MN 55429, USA
612-730-7217 & 763-561-0041
daralmanar@hotmail.com



Printed in Egypt

دار النشر للجامعات

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ - ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤

E-mail: darannshr@link.net